

اقبال

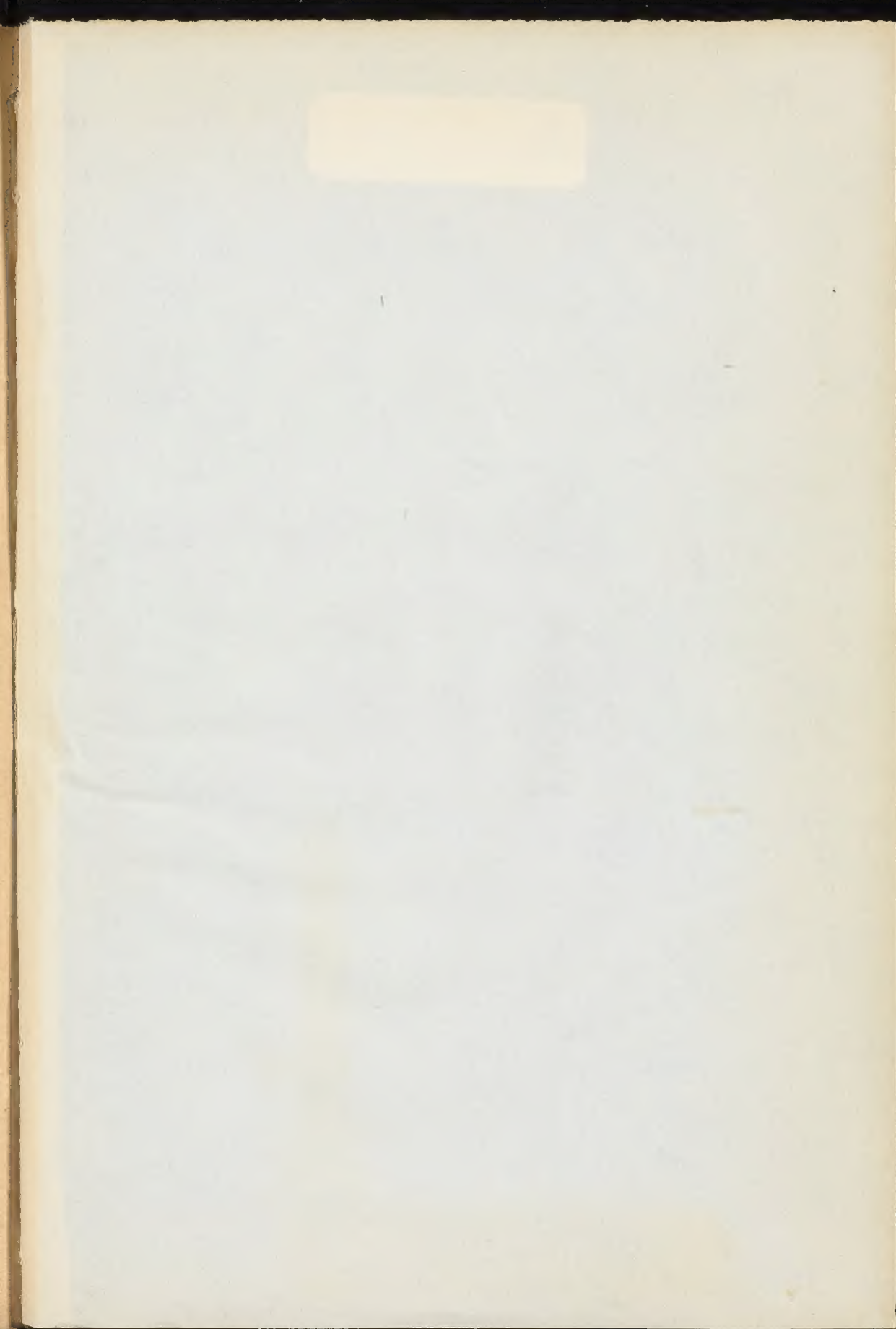
روائع

ابو الحسن علي الحسيني الندوي



دار الفکر بیروت





Nadvī, Abulḥasan 'Alī

Rawā'ī-i Iqbāl

روائع اقبال

ابو الحسن علي حسني الندوي

وكيل ندوة العلماء - بالهند
عضو المجمع العالمي العربي - بدمشق

دار الفكر بدمشق

الطبعة الاولى

۱۳۷۹ - ۱۹۶۰

مطابع دارالعينى كبرى
۱۱۰۲۱ ۳

بسم الله الرحمن الرحيم

صليتي بمحمد اقبال وشعره

نشأت في عصر وفي بيئة بلغ فيها شعر محمد اقبال قمة مجده وشهرته ،
وفي جيل فتن به أكثر مما فتن بشعر شاعر وأدب كاتب . فلا عجب
إذا أعجبت به صغيراً وعنيت به كبيراً .

ان أسباب الاعجاب بشعر محمد اقبال كثيرة ، والمعجبين به أن
يتحدثوا عن أسباب إعجابهم ، وهي ترجع في الغالب الى موافقة الهوى
والتعبير عن النفس ، فالإنسان إنما يحب نفسه ويطوف حولها ويعيش
فيها ويحب كل ما وافق نفسه ، وترجم عن ضميره ؛ ولا أبرئ نفسي ،
فربما أحبيت شعر محمد اقبال لأنني رأيت يوافق هواي ، ويعبر عن
ضميري وخواطري ، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري ويتناغم مع
عاطفتي ومشاعري .

إن أعظم ما حماني على الاعجاب بشعره هو : الطموح ، والحب ،
والإيمان . وقد تجلى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم مما
تجلى في شعر معاصر ، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح والحب
والإيمان وهي تندفع اندفاعاً قوياً الى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح ، وسمو
النفس ، وبعد النظر ، والحرص على سيادة الاسلام ، وتسخير هذا
الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، وبغذيان الحب

والعاطفة وبيعتان الايمان بالله ، والايمان بمحمد ﷺ ، وبعقريه سيرته ،
وخلود رسالته ، وعموم امامته للأجيال البشرية كلها .

انني أحبيته وشغلت به كشاعر « الطموح والحب والايمان »
وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة ؛ وكأعظم ناثر على هذه الحضارة
العربية المادية ، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها ؛ وكداعية الى المجد
الاسلامي وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية
الضيقتين ، وأعظم الدعاة الى النزعة الانسانية والجامعة الاسلامية .

قرأت شعره في الصبا وفي عنقوان شباني ، وحاولت أن أنقل
بعض قطعه الأدبية الى العربية . ولم أكن قد قرأت له في ذلك العهد
إلا مجموعة شعره « بانك درا » ، وقد صدرت له دواوين فارسية لم
أكن قد قرأتها وتذوقتها في ذلك الحين ، لضعف ثقافتى الفارسية .
وكانت زيارتي الأولى له في سنة ١٩٢٩ م .

كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد قدّر لي أن أزور
لاهور ، بلد العلم والثقافة في الهند - غير المنقسمة - ومقر الشاعر العظيم .
وفي يوم صائف شديد الحرّ من أيام أيار الاخيرة أخذني الدكتور عبد
الله الجفغائي - أستاذ الفن الاسلامي في جامعة بنجاب اليوم - الى محمد
اقبال ، وقدّمني اليه وذكر شغفي بشعره ، وذكر والدي مولانا السيد
عبد الحمي الحسيني^(١) الذي كان يعرفه محمد اقبال ويعرفه الادباء والمثقفون
بكتابه العظيم « گل رعنا » ، تاريخ الشعر والشعراء في الهند الذي

(١) مؤلف كتاب « نزّهة الخواطر » في تراجم أعيان الهند - غير المنقسمة - في ثمانية
مجلدات كبار ، ظهرت سبعة منها من دائرة المعارف ، بميدرا آباد ، الهند . ونشر المجمع العلمي
العرني بدمشق كتابا له « الثقافة الاسلامية في الهند » قريبا .

كان قد صدر حديثاً ولقت الأوساط الادبية وأثار الاهتمام فيها .
وقدّمت اليه ترجمتي لقصيدته البديعة « القمر » فتصفحها محمد اقبال ،
ووجه اليّ أسئلة عن بعض شعراء العربية يختبر بها دراستي وثقافتي ؛
وانتهى المجلس ورجعت معجباً بتواضع الشاعر العظيم وبساطة مظهره
وعدم تكلفه في المعيشة والحديث .

وبقيت بعد ذلك أعواماً طويلاً من ١٩٢٩ الى ١٩٣٧ أزور لاهور
كثيراً وأقضي فيها أسابيع وشهوراً ، ولا أحرص على زيارة الشاعر
العظيم ثقة ببقائه ووجوده - وكلم خدع هذا أناساً - وقد أعان على ذلك
زهدي في زيارة العطاء وعكوفي على الدراسات والاشغال العلمية في لاهور .

وقد صدر في هذه المدة ديوانان جديدان له في اردو - بعد فترة طويلة ،
انقطع فيها عن الشعر في اردو ، وآثر الفارسية لرسائله وشعره - كان
لها دور عظيم في الأوساط الادبية والاسلامية ، وشاعريته فيها أقوى
وفكرته أنضج وأحصف ، ورسائله أوضح . وقد قدّر لي ان اقرأ
« ضرب كليم » وأتذوقه أكثر من « بال جبريل » وان كان من
المقدر والمقرر ان يكون إعجابي بـ « بال جبريل » وعنايتي به بعد
في الترجمة والنقل ، أكثر وأعظم .

كنت مدرساً في دار العلوم التابعة لندوة العلماء ومقيماً مع أخي
الاستاذ فريد اللغة العربية في الهند مسعود الندوي ، منشئ مجلة « الضياء »
العربية . وكنا نتناشد شعر اقبال . وكان الاستاذ مسعود من شيعة
اقبال ومن كبار المتحمسين له ، وكان يغيظنا ان طاغور أشهر في
الافطار العربية من اقبال ، وإعجاب إخواننا العرب والادباء في مصر
وسورية لشعره أكثر ، وكنا نعد ذلك تقصيراً منا في تعريف شعر
اقبال ، وكلمنا رأينا تنويعاً بشعر طاغور واطراء له في مجلة عربية

- وما أكثر ما كنا نرى ذلك في المجلات العربية - قوي عزمنا على ترجمة شعر اقبال ، ورأيناه أمانة في أعناقنا .

وقد قدر الله ان أجمع بالشاعر العظيم قبل وفاته بشهور ، وان تكون لي معه جلسة طويلة تاريخية . كان ذلك في اليوم السادس عشر من رمضان عام ١٣٥٦ هـ (٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٩٣٧ م) زرت في منزله في الصباح . وكان معي عمي الاستاذ الكبير السيد طلحة الحسني^(١) وابن عمي السيد ابراهيم بن اسماعيل الحسني . وكان معتكفاً في بيته في مرض طال به وأضناه ، وكان مريضه الاخير الذي توفي فيه ؛ صادفنا من نفسه نشاطاً وطيباً ، أو نشط بقدمنا - لست أدري - وفاضت قريحته ، فطالت الجلسة وطابت حتى استغرقت نحو ثلاث ساعات ، والخدام العجوز يقاطعه حيناً بعد حين إسفاقاً على صحته من طول الجلوس وكثرة الحديث ، فيعتمر ويوقفه ، واسترسل في الكلام وأفاض وتحدث عن كل موضوع ؛ تحدث عن الشعر العربي القديم ، وتحدث عن اعجابه بصدقه ، وواقعيته ، وما يشتمل عليه من معاني البطولة والفروسية ، وتمثل ببعض أبيات الحماسة ؛ وذكر أن الاسلام أثار في أتباعه روح الكفاح وحب الواقع ، وأن علوم الطبعة تلتقي مع الاسلام على الجد والعمل والبعد عن البحوث الفلسفية التي لا جدوى فيها ، وقد ظلت هذه الروح متغلغلة في المجتمع الاسلامي قرنين ، فقد بقي متمسكاً بالعقيدة والعمل والسيورة والخلق ، حتى طغت عليه الفلسفة الاغريقية ؛ وتحدث عن الفلسفة الإلهية ، وكيف شغلت الشرق واستهلكت قواه ، وذكر أن أوروبا انما نهضت وملكتم العالم لما ثارت على هذه الفلسفة ما بعد -

(١) استاذ الكلية الشرقية لجامعة بنجاب سابقاً ومن كبار العلماء والمثقفين .

الطبيعة ، وبدأت تشغل بعلم الطبيعة المجدية المنتجة ؛ ولكن قد حدث
وثار من المسائل في هذا العصر ما يخاف معه ان ترجع اوربا القهقري
وذكر أن العقل العربي كان أقوى على إساغته الاسلام إساعة صحيحة
وأجدر بمحمل أمانته ، وقد أصيب الاسلام في ايران بما أصيبت به المسيحية
في اوربا ، فقد أثرت العقلية الآرية في كلتا الديانتين .

وتحدث عن التصوف وانتقد اغراق بعض رجاله في التخيل والنطرف ،
وتطرق الحديث الى تواجد بعض المتصوفين وطريهم للسمع ، فقال ان
الصحابة كان يتملكهم الطرب والاهتزاز والأريجية على صهوات الجياد
في ساحة الجهاد .

وتحدث عن التجديد الاسلامي في الهند فأثنى على الشيخ أحمد السرهندي
والشيخ ولي الله الدهلوي والسلطان محي الدين أورنگ زيب ؛ وقال اني
أقول دائماً : لولا وجودهم وجهادهم لابتعت لهند وحضارتها وفلسفتها الاسلام.
وتحدث عن باكستان^(١) وقال : إن أمة لا تملك أرضاً تستند إليها
لادين لها ولا حضارة ، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة . وان
باكستان هي الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارة
الهندية ، وهي الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية ، وأشار الى نظام الزكاة
وبيت المال في الاسلام .

وبمناسبة مستقبل المسلمين في الهند ، قال : أشرت على بعض أمراء
المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الاسلام في غير المسلمين ، ونشر
الثقافة والآداب الاسلامية في المسلمين ، واهياء اللغة العربية وأدبها في

(١) لا يفربن عن البال ان باكستان انما كانت فكرة وحلها يومئذ وانما قامت سنة
١٩٤٧ م بعد وفاة صاحب فكرتها بنحو عشر سنين .

هذه البلاد ، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عالمي ، وإنشاء صحيفة
الانجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين ، حتى يحسب لهم حساب
ويهرب جانهم ، وتكون لهم مكانة عالمية تحشى وترجى ؛ وان في ذلك
صيانة لدولتهم وضماناً لكيانهم . ولكن الامراء المسلمين لم يعرفوا أهمية
المسألة ، ودقة موقفهم ، والاحطار التي تحديق بهم . وكان يشكو قصر
نظرم ، وضعف تفكيرهم ، واشتغالهم بأنفسهم^(١) .

ورأينا الدكتور راغباً في الحديث ، راغباً في بقائنا معه لوقت أوسع ،
ورأينا من المصلحة ان نستأذنه في الانصراف حتى يستريح ، وسلمنا عليه
وخرجنا من عنده ؛ وسافرت من لاهور ذلك اليوم أو من غد .

وأذكر أني استأذنته في ترجمة شعره الى العربية في ذلك المجلس
فتكرم بذلك ، وأنشدته بعض قصائده من « ضرب كليم » ؛ وذكر
محمد اقبال الاستاذ عبد الوهاب عزام وأنه ينوي ترجمة شعره .

وبعد ستة أشهر فوجئنا بنبا وفاته في ٢١ من ابريل عام ١٩٣٨ م .
فصح العزم وانهقدت النية على ترجمة حياته وترجمة شعره . وكتبت في
ذلك الى الاخ مسعود ، وكان يومئذ في « بته » عاصمة ولاية بهار ،
وتبادلنا التعازي وأردنا ان نتعاون على هذه المهمة ، فأبدى استعداداه
وعزومه على ترجمة حياته ، وتقديم فكرته ، وحثني على ترجمة شعره ؛
وذكر أن قريحته لاتطاوله في الترجمة . وشرعنا في العمل ، فكتب
الاستاذ مقالة مؤثرة رقيقة في « الفتح » الغراء التي كان يصدرها الاستاذ
محب الدين الخطيب من القاهرة ، وكتبت مقالة في ترجمة حياته أذيعت

(١) الفيت هذه الامارات بعد التقسيم بحرة قلم ، وذهب الامراء و « أصحاب السمو »
الذين لم ينتفع الاسلام والمسلمون بثروتهم وكنوزهم . « فلا بكت عليهم السماء والارض
وما كانوا منظرين » .

بعد سنين من محطة الاذاعة في الحجاز . وتوقف العمل لاشغال تعليمية وتأليفية مرهقة ، وكانت فترة طويلة دامت بضع عشرة سنة .

وفي عام ١٩٥٠ م سافرت الى الحجاز ومصر وسورية ونشطت في هذه الرحلة ، التي استغرقت أكثر من عام ، لكتابة عدة مقالات عن اقبال وفكرته وشعره ، وألقيتها محاضرات في دار العلوم وفي جامعة فؤاد الاول (جامعة القاهرة الآن) ومقالة كتبته في دمشق عام ١٩٥٦ م في زيارتي الثانية لسورية . هي مقالة « محمد اقبال في مدينة الرسول » أذيعت من محطة الاذاعة السورية .

وفتر العزم لترجمة شعره ، خصوصاً وقد علمت ان الاستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام عاكف على ترجمة شعره بالشعر . وهو من أجدر الناس بهذا العمل ، وأقدرهم عليه ، لجمه بين الثقافتين الفارسية والعربية ، ولانسجامه الفكري مع اقبال وعقيدته ودعوته . وقد ظهرت له عدة دواوين^(١) ، وقد ذكر لي بعض الاصدقاء انها لا تؤثر في نفس القارئ ولا تثيرها إثارة الشعر الرقيق ، ولا تعطي صورة كاملة واضحة لفكرة اقبال ورسائله ، ولا تبرز شهرته وما قيل عنه . وتصفحت بعض هذه الدواوين فرأيت ان ذلك لا يرجع الى ضعف في الترجمة ، ونقص في العلم والفهم . وهذه الدواوين برهان ساطع على مقدرة الاستاذ عزام الغربية على النظم العربي ، واقتداره على القوافي الصعبة ، ولكنه لم يكن محسناً الى نفسه ومواهبه ، يوم قرر أنه يترجم الشعر بالشعر؛ وذلك الذي أفقد شعر اقبال قوته وانسجامه ، وأفقد الترجمة بهاءها ورواءها ، وتأثيرها ؛ وأضفى على هذا العمل الادبي العظيم شيئاً من

(١) وهي « رسالة المشرق » و « ضرب الكلم » وقد ترجم « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وشيئاً من « جاويدنامه » .

الغموض ، قد يحول بين القارئ وبين التذوق والتمتع بالشعر الجميل ، والمعاني الرقيقة . وكان الامثل للاستاذ عزام وهو من أدباء العربية ومن كبار المنشئين فيها ، ومن البارعين في اللغة الفارسية من أبناء العرب - ان يتشرب فكرة اقبال ثم يصيها في قالب العربي كما فعل ذلك في بعض مقالاته التي ظهرت في « الرسالة » و « الثقافة » وكانت بارعة مؤثرة . ولكل لغة جو خاص ، ونفسية خاصة ، ومنهج تفكير ، وأسلوب تعبير ، وتشبيهات ، ومجازات تتعاقب بينها ومجتمعها وتاريخها ومزاجها ومواسمها وفصولها ، اذا ترجمت حرفياً فقدت جمالها ومعناها ، ولم تؤد رسالتها .

وعلى كل فان عمل العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام مأثرة اسلامية ادبية جليلة ، تستحق كل تقدير واعجاب وشكر واعتراف . وهي تدل على علو كعبه في اللغة العربية ، وعلو همته وجودة ريحته ، واخلاصه ومثابته ، وحبه للاسلام ، والفكرة الاسلامية . وقد كان من سعادة الدكتور محمد اقبال ان يرزق مترجماً وترجماناً كالدكتور عبد الوهاب في علمه وفضله ونبالاته ونزاهته ولا شك ان روح اقبال مسرورة شاكرة لعمله جزاءه الله افضل جزاء وكافأه على هذه المبرة خير مكافاة .

ولعل الامد كان يطول على هذه الفترة ، وفتور الهمة في الترجمة ، وقد اشغل عنها لشواغل وعوائق كثيرة ، ولكن حدث ما جدد في النشاط وحرك العزم ، وذلك اني قرأت في مجلة « المسلمون » التي تصدر من دمشق كلمة رقيقة مخلصة لأديب العربية الكبير وكاتبها القدير ، الاخ الاستاذ علي الطنطاوي ، يحثني فيها على ترجمة بعض قصائد اقبال ليعرف بها مكانة الرجل ، وقوه شاعريته ومعمور رسالته ، ويقول في كتاب مفتوح وجهه اليّ (... هل لك ان تختار من شعر اقبال ما يجعلنا نذوق طعم أدبه ونلم بطريقته ، ونتجلى أسباب عظمته

فان كل ماقرأنا من كلامه مترجماً الى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلنا عليه) ... (فهل
تضيف يا أخى ! يا أبا الحسن الى ما ترك هذه الماثرة ، فتفتح للعرب كوة على هذه
الروضة المحجبة او تحمل اليهم زهرات منه فتعسن بذلك الى العرب وباكستان
والى الادب والاسلام) (١)

وقد صادف هذا الافتراح منى هوى ونشاطاً ، وأثار الفريجة ، التي
خدمت وفترت من زمان ، فترجمت قصيدته البديعة « في مسجد قرطبة » في
جلسة واحدة ، وشعرت باستعداد في نفسي ورغبة لذيدة في الترجمة ، لاستطيع
لها دفعا ، وجاءت المقالات تترى . ونشرت في بعض المجلات العربية الاسلامية
واقصرت في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها المرحوم العلامة عبد
الوهاب عزام بالتعريب . وكان لديوانه « بال جبريل » اكبر نصيب من هذه
التراجم . وقد رتبته كما كتبت ونشرت ، إلا اني جعلت مقالة « في مدينة
الرسول » خاتمة هذه المجموعة ، لانها من شعره الاخير ، ولأن المدينة هي نهاية
المطاف للشاعر المؤمن ، منها طالت سياحته الفكرية .

اما بعد فإني لا أعتقد في اقبال عصمة ولا قداسة ولا امامة ولا
اجتهاداً في الدين ، ولا أبالغ في إجلاله والاستشهاد بأقواله ، كما يببالغ
كثير من الكتاب المعاصرين ، والمؤلفين المتطرفين . اني أعتقد أن
الحكيم السنائي ، وفريد الدين العطار ، والعارف الرومي كانوا أرفع
منه مكانة بكثير ، في التأدب بآداب الشرع ، والجمع بين الظاهر والباطن ،
والدعوة والعمل . وقد كانت له في محاضراته التي القاها في المدارس
أفكار فلسفية وتفسيرات للعقيدة الاسلامية لا نوافقه عليها . ولا أعتقد
- كما يعتقد كثير من الشباب المتحمسين - أنه لم يفقه الاسلام عالم
مثله ، ولم يحيط بعالمه وحقائقه غيره . إنني لم أزل - والحق أحق

ان يقال - في كل دور من أدوار حياتي وثقافتي معتقداً انه لا يزيد على أن يكون تلميذاً من تلاميذ الثقافة الاسلامية النجباء الاذكياء ؛ درسها دراسة مخلصة ، وكان لا يزال في حاجة الى التعقق والرسوخ فيها ، والاستفادة من معاصريه الكبار^(١) . وكانت في شخصيته الكبيرة النادرة جوانب ضعف لا تتفق مع عظمته العلمية ، وعظمة رسالته ، وشعره ، لم يجد وقتاً كافياً وجوراً ملائماً لإكمالها وتسديدها .

إن جل ما أعتقد ان اقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر . أنطقه الله الذي انطق كل شيء . أنطقه كما انطق الشعراء والحكماء قبل عصره ، وفي غير عصره . إنني أعتقد انه كان صاحب فكرة واضحة وعقيدة جازمة ، عن خلود الرسالة المحمدية وعمومها ، وعن خلود هذه الامة وصلاحياتها للبقاء والازدهار ، وعن كرامة المسلم وانه خلق ليقود ويسود ، وعن تهاافت المبادئ والفلسفات والدعوات التي ظهرت في هذا العصر كالقومية والوطنية والشيوعية والرأسمالية . ووجدت فيه من وضوح الفكرة وشدة الاقتناع بها ، والتحمس لها ، والشجاعة في نشرها ، وفي نقد هذه الفلسفات ، ما لم أجده مع الاسف في كثير من رجال الدين لعدم اكتنائهم بحقيقتها واطلاعهم على نواياها وأهدافها واسسها وتاريخها .

وأخيراً لا أخيراً وجدته شاعر الطموح والحب والايان ، وأشهد على نفسي اني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثارت عواطفني وشعرت

(١) ولم يزل يستفيد فعلاً من العلامة الكبير انور شاه الكشميري والاستاذ الكبير العلامة السيد سليمان الندوي . ورسائله اليه والى صديقنا الجليل الاستاذ مسعود الندوي تدل على سماحة نفسه وتواضعه وروحته العلمية .

بدبيب من المعاني والاحاسيس في نفسي وبحركة للحماسة الاسلامية في عروقي ؛ وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري .

يحملني على نشر هذا الكتاب في العربية ما أراه من خضوع الشرق الاسلامي العربي للفلسفات الغربية والحضارة المادية خضوعاً زائداً . قد بدأ هذا العالم العربي الاسلامي يتأرجح بين الجاهلية القديمة والجاهلية الجديدة . فاما قومية متطرفة وإما شيوعية ملحدة . وقد سيطرت على الادب والشعر النزعة التجارية او النزعة السياسية ، او فكرة المتعة والتسلية . والاديب الذي يعرف رسالته ويخلص لها وينقطع اليها ، ويسخر أدبه ومواهبه لمحاربة الجاهلية ومقاومة الثورة على الرسائل السماوية ، والقيم الخلقية التي انتشرت في العالم الاسلامي ، وصدت تيار الردة الفكرية ، التي اكتسحت الطبقة المثقفة ، يكاد يكون مفقوداً .

في هذا الجو المكرب بالفكر الغربي ، وفي هذا العالم المتجاهل او المتناسي لقيمه ، وقوته ، ورسالته ومكانه في قيادة الامم ، ترداد قيمة شاعر يولد في بلاد بعيدة عن مهد الاسلام ، في سلالة بروهيمية قريبة العهد بالهداية الاسلامية ، في بيئة كان يحكم فيها الانجليز وتسود فيها الثقافة الغربية ؛ يدرس العلوم العصرية ، والآداب الغربية الى أقصى حدودها ، وفي أعظم مراكزها ، ثم يشتد إيمانه بالرسالة المحمدية ، وحبه وغرامه بشخصية محمد ﷺ ، وثقته بهذه الامة ومواهبها ومستقبلها ، وتشتد حماسه للاسلام ، ويشتد إنكاره لأسس الفلسفة الغربية والحضارة الاوروبية ، ويستخدم عبقرية الشعرية ومواهبه الأدبية في نشر عقيدته وشعوره ودعوته . ويكون خير مثال للشاعر المؤمن والعالم الداعي والفيلسوف الحنيف . ويحدث هزة في الافكار والآداب في قطر من أعظم الاقطار الاسلامية وأوسعها . ويتجاوز تأثيره الى اقطار بعيدة ، ويسمع له صدى في العالم الاسلامي .

ورأينا انها خير هدية نهدىها الى الجيل الاسلامي الجديد والى الشباب
العربي الناهض . فنتقدم بهذا الكتاب عسى ان يجدوا فيه ما يحرك
العزم ، ويفتح القريحة ، ويلهب الغيرة ، ويتبعه بالادب والفكر اتجاهاً
جديداً . والله من وراء القصد .

ابو الحسن علي الحسني الندوي
٣ ربيع الاول عام ١٣٧٩ هـ

المجمع الاسلامي العالمي
للدعوة العلماء لكهنؤ

شاعر الإسلام : الدكتور محمد اقبال

مباني وثقافته ، شاعريته وانتاجه

ولد محمد اقبال في « سيالكوت » مدينة في مقاطعة پنجاب سنة ١٨٧٧ م وهو سليل بيت معروف من اوسط بيوتات البهايمة في كشمير . أسلم جده الأعلى قبل مائتي سنة . وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد اقبال في مدرسة انجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الاخير بامتياز . ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالاستاذ السيد مير حسن ، استاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ؛ فأثر في الشاب الذكي كل تأثير ، وغرس فيه حب الثقافة والآداب الاسلامية ، ولم ينس اقبال فضله الى آخر حياته ولما قضى وطره من الكلية سافر الى لاهور ، عاصمة پنجاب ، وانضم الى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الاخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية والانجليزية ونال وسامين ، واخذ شهادة (B.A.)^(١) بامتياز . وفي لاهور اتصلت اسبابه بالاستاذ الانكليزي الشهير « سرتها مس اونولد » صاحب كتاب « دعوة

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الانكليزي الهندي تعادل ليسانس في مصر وغيرها .

الاسلام ، (The Preaching of Islam) وعهد الكلية الاسلامية في علي كره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي ، والاديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد وعضو مجلس الهند سابقاً ، وكان انشأ اول مجلة علمية أدبية في لغة اردو ، اسمها « مخزن » . وكان اقبال نظم قصيدته الاولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب الانجليزية الافكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١ م . ونظم عدة قصائد ادبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في اندية الشعر والادب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع . وفي هذه المدة أخذ محمد اقبال درجة (M.A.) (١) في الفلسفة بامتياز ونال وساماً وعيّن على اثره استاذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور . ثم استاذاً للانجليزية والفلسفة في كلية الحكومة التي تخرج منها ؛ وشهد بكفاءته وغزير علمه الاساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف . ثم سافر الى لندن سنة ١٩٠٥ م ، حيث التحق بجامعة « كامبردج » واخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد . ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في موضوعات اسلامية ، اكسبته الشهرة والثقة . وتولّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب استاذه أرنولد . ثم سافر الى المانيا واخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ثم رجع الى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ؛ وانتسب الى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصّص في المادتين ، ورجع الى الهند سنة ١٩٠٨ م سالماً غانماً . ولما مرّ بصقلية في طريقه الى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة ، افتتحها بقوله : « إبك أيها الرجل ! دما لادمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

ومن دواعي العجب ان كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

(١) وهي تعادل « الماجستير » في مصر .

اثنين وثلاثين عاما من عمره . وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم . واشتغل الشاعر الفلاني والاقتصادي الخبير والسياسي الخاذق في عدة لغات بالحمامة ؛ لكن ما كان هواه في الحمامة ، فكان يقضي أكثر أوقاته وجل همه في تأليف الكتب وقرض الشعر . وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الاسلام » السنوية ويثشد فيها قصائده ، ومنها قصيدة « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها الى الله على لسان المسلمين ما حل بهم ، وذكر اعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والاصلاح . ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ؛ بين فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم الدين ، وعدم إتقانهم امر الدنيا تبريراً لما جزوا به من الحزني والهوان . وسرعان ما سارت بها الركبان ، وتغنى بها الاطفال والشبان ، وحفظها الرجال والنساء وهما عندهم أشهر من « قفانبك » . وهما قصيدتان بديعتان مبتكورتان في الاسلوب والمعاني والقرض . وقال « النشيد الوطني » و « انشودة المسلم » وكلاهما سار سير المثل ، وصار الاول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في ، الهند والثانية انشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ م . وما يوم حليمة بسر ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، وجرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه ، وهاج هائج ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والامبراطورية الأوربية ، وأملأه حزنه ووجدته قصائد ، كلها دموع حارة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوربيين . وتتجلى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة فمن قصائده « البلاد الاسلامية » رد على الوطنية ، ودعوة الى الجامعة الاسلامية .

و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) ومحاصرة أدونة و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى الى الرسول » وقد نعى في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجون الى اوروبا ويشدون اليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ولا يعرفونك » و « هدية الى الرسول » وقد قال فيها « أنه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ ماذا حملت الينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال : لأنها لا تليق بمقامكم الكريم ولكنني جئت بهدية ، وهي زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤ م وحدث ما حدث فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً . وحكماً فيلسوفاً ، يتكهن بالاخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشب من حماسه نيراناً ، ويفجر بإيمانه وثقته أنهاراً : وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته . وفي تلك المدة نظم غرّة قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، منها : « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الاجير » و « عالم الاسلام » و « طلوع الاسلام » وكلها آية في الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة . أما « طلوع الاسلام » فهي بيت القصيد في شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الاسلامي في القوة والانسجام . وقد طبع سنة ١٩٢٤ م اول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان اقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شعر شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الاخير الذي انتهى الى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتضحت رسالته فنشر له عدة كتب بالفارسية . وقد أثر اللغة الفارسية لشعره لأنما أوسع من الأردية ، وهي اللغة الاسلامية التي تلي اللغة العربية في الاهمية والانتشار في العالم الاسلامي ، ويتكلم بها فطران ميهان ايران وافغانستان ، وتفهم في الهند ، ويجذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان وروسيا وتركيا . ونشر مجموعتين بالأردية ، فأما الدراوين الفارسية فهي : « أسرار خردى » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودى » (أسرار فناء الذات) و « پیام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « نحية الغرب » و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « پس چه بايد كرد أي اقوام شرق » (ماذا ينبغي ان تعمل الشعوب الشرقية) و « مسافر » . و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالاردية « بال جوبيل » (جناح جوبيل) و « ضرب كلم » (ضرب موسى) وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم (Reconstruction of Religious Thought in Islam) ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج . وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيماً ، وعلقوا عليها أهمية كبيرة . وترجم أكثر كتبه الى الانكليزية والفرنسية والالمانية والاطلمانية والروسية ، ومن تولى هذا النقل الاستاذ الانكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، وترجم بالانجليزية « أسرار خردى » و « رموز بيخودى » وألفت في المانيا وايطاليا مجامع وحيثات باسمه ، لدرس شعره وفلسفته . وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الاسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠ في « إله آباد » ، وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة . وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً

للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة
المستديرة الثاني سنة ١٩٣٢ - ١٩٣١ م .

وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا واسبانيا وايطاليا ،
فزار القطرین الاخيرین ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن
الاسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ
بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعاً غزيراً ، وتذكر العرب
الاولين ، الذين حكموا هذه الارض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه
وهوائه أريج حضارتهم . وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه
حرمانه من سجد المؤمنین ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عمده من
الأذان ، وظأه الى ذلك . فقال الشعر الرقيق ، الذي يعد من القطعة
الادبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده (١) . وكان في زيارته
لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ . وقابله السنيور موسوليني
وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه طويلاً . وسألته
حكومة فرنسا ان يزور مستعمراتها في شمال افريقية ، ولكن رفض
الشاعر الاسلامي الغيور دعوتها ، وأبى أيضاً ان يزور جامع باريز ،
واسأذنته وقال ان هذا ثمن نجس لتمدیر دمشق ، واحراقها . واثناء اقامته
بأوروبا اقيمت له عدة حفلات تكريم ، منها حفلة تكريم اقامها له اصدقؤه
وأسأذنته في جامعة كامبردج وجامعة لندن ، وحفلات اقامتها جمعية ارسطو
وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي
في روما . وفي طريقه الى الهند عرج على القدس ، واشترك في المؤتمر
الاسلامي الشهير ، وقال في اثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » (٢)

(١) تظهر هذه القصيدة في هذه المجموعة .. انظر « في جامع قرطبة »

(٢) ظهرت هذه القصيدة في هذه المجموعة بعنوان « في فلسطين »

وفي سنة ١٩٣٢ م لبى دعوة السلطان الشهيد نادر خان ملك
 أفغانستان في بعثة تتألف من فقيه العلم والشرف سر راس مسعود حفيد
 سر سيد احمد خان ورئيس جامعة عليكره الاسلامية ، والاستاذ
 الكبير السيد سليمان الندوي وتحدث اليه الملك الفقيه طويلا ، وافضى
 اليه بذات صدره وبكيا طويلا . ولما زار قبر السلطان محمود الغزنوي فتح
 الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه وانتضج باكياً ، وقال قصيدة
 حكيمة بديعة ^(١) وعلى اثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .
 وكان الشاعر يشتكي أدواءاً ، يغلبها وتغلبه ، وانخرفت
 صحته اخيراً ، وظل أياماً طويلة رهين الفراش . ولم يزل لسانه يفيض
 بالشعر ، ويملي الكتب ، والمقالات ، ويقابل الاصدقاء والزوار والعواد
 ويحادثهم في شؤون اسلامية وعلمية . ومما نشر له في هذه الايام ، مقالة
 مستفيضة في الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس . ومما
 قال قبل وفاته بأيام : جنة لارباب الهم ، وجنة للعباد والزهاد ، قل
 للمسلم الهندي : أبشر ، فان في صيد الله جنة أيضاً . وقال قبل
 وفاته بعشر دقائق : « ليت شعري ! هل تعود النعمة التي ارسلتها في
 الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية . قد أظنني موتي وحضرتني الوفاة
 فليت شعري ! هل حكيم يخلفني ... ؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه :
 « انا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم ان يستقبل الموت
 مبتسماً » . وكان ذلك آخر برهان أقامه على صدق الاسلام ، وايمان
 المسلم وبقينه ، ولفظ نفسه الاخير في حجر خادمه القديم ، على حين غفلة
 من العواد والاصدقاء والتلاميذ والاخوان في سائر انحاء العالم الاسلامي .
 وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارة ونوراً ، قبل ان تطلع
 شمس ٢١ ابريل ١٩٣٨ م ^(٢) .

(١) انظر : « في غزنين »

(٢) اذيع هذا الحديث من محطة البلاد العربية السعودية عام ١٩٥١ م .

(١) العوامل التي كونت شخصية محمد اقبال

سادتي واخواني ! يسرني جداً أن اتحدث اليكم عن شاعر الاسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد اقبال ، ويزيدني سروراً واعتباطاً ان يكون هذا الحديث في مركز تعليمي وأدبي كبير كدار العلوم . وبهذه المناسبة سيدور حديثي اليوم حول دراسة هذا الرجل العظيم والمدارس التي تخرج فيها والعوامل التي كونت شخصيته .

المدرسة الاولى التي تخرج فيها محمد اقبال :

لقد تخرج محمد اقبال في مدرستين ، أما المدرسة الاولى فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلب في فصولها ودروسها ما بين الهند وانجلترا والمانيا ، ويقرأ على اساتذتها البارعين ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الاسلامي في ثقافته الغربية . أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفة ، واجتماع ، واخلاق ، واقتصاد ، وسياسة ، ومدنية غاية ما يمكن لغربي متخصص ، فضلاً عن شرقي متطفل ؛ وبلغ بدراسته الى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة . هذا الى توسع في الآداب الانجليزية والالمانية والشعر الغربي في مختلف ادواره وعصوره . ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

(١) من محاضرة أليقت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ من جمادى الثانية ١٣٧٠ هـ الموافق ١٩٥١/٣/٢٨ .

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد ، واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الادب الاسلامي والتاريخ الاسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محل الصدارة العلمية والزعامة الفكرية والعبقرية الاسلامية ، ولكل منها شروط دقيقة ومستوى عال ، لا يحمله الانسان بمجرد الدراسة والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والانتاج . أقول لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها لما زاد على ان يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة أو علم الاقتصاد أو في الادب أو في التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة أو وزيراً في دولة . وصدقوني أيها الاخوان ! أن لو كان ذلك لطواه الزمان في من طوى من كبار العلماء والادباء والشعراء والمؤلفين والقضاة والوزراء . ان الفضل في عبقرية اقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع الى المدرسة الثانية التي تخرج فيها .

اني لأراكم أيها الاخوان ! تذهبون كل مذهب في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء الى موقعها واني لأراكم تتطلعون الى معرفة اخبارها . فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تُدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شك أنهم من كبار المُربّين واعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة وما تكاليفها ؟ وأظن ان لو علمتم بوجودها وحلها لأسرع كثير منكم اليها والتحق بها .

إنها مدرسة ماخاب من تعلم فيها ، وما ضاع من تخرج منها ؛ إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجريين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا . وتفصيل ما أجلوا ، فيتكوّن من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسة ما تعلّم التاريخ بل تخلق التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار بل تنتج الآثار ؛ إنها مدرسة توجد في كل مكان وزمان ، وهي أقدم مدرسة على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الاخوان ! طويلاً ؛ إنها مدرسة داخلية تولد مع الانسان ، وتحملها الانسان معه في كل مكان . هي مدرسة القلب والوجدان . هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية وتغدها القوة الروحية .

قد تخرج محمد اقبال في هذه المدرسة ، كما تخرج كثير من الرجال الموهوبين ، وحدث عنها كثيراً في شعره ، ورد إليها الفضل في تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته . وصرح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنه لولا هذه المدرسة وتربيتها لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ؛ وقد حدث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً وذكر فضلهم عليه .

العامل الاول :

فمن يرد الفضل إليه في هذه المدرسة « الايمان » ، الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته . وليس ايمان محمد اقبال هو الايمان الجاف الخشب ، الذي هو مجرد عقيدة أو

تصديق بسيط ، بل هو مزيج اعتقاد وحب ، يملك عليه القلب
والمشاعر والعقل والتفكير والارادة والتصرف والحب والبغض . وقد
كان شديد الايمان بالاسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الاخلاص
والاجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبه ، مقتنعاً بأن الاسلام
هو الدين الخالد الذي لاتسعد الانسانية إلا به ، وان النبي ﷺ هو
خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويرجع محمد اقبال الفضل في تكوين شخصيته ، ونماصه أمام
المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف الى الاتصال الروحي
بالنبي ﷺ ، وحبه العميق له ، ولا شك ان الحب هو خير حاجز
للقلب ، وخير حارس له . اذا احتل قلباً وشغله ، منعه من أن يغزوه
غيره ، او يكون كريمة في فلاة ، او يعبت به العابثون ، يقول :
« لم يستطع بريق العلوم الغربية ان يهر لبي ، ويعشي بصري ، وذلك
لأنني اكتنحت بأئد المدينة » . ويقول : « مكثت في أتون التعليم الغربي
وخرجت كما خرج ابراهيم من نار نمرود » . ويقول : « لم يزل ولا يزال
فراغة العصر يرصدوني ، ويكمنون لي ، ولكني لأخافهم فاني احمل
اليد البيضاء . ان الرجل اذا رزق الحب الصادق عرف نفسه ، واحتفظ
بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلطين . لاتعجبوا اذا اقتنصت
النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فاني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي
تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في
إثره الغبار فصار أعقب من العبير » .

وفي كتاب « اسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الامة
الاسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها
ﷺ ، والتشبع بتعاليمه ، والتفاني في حبه . ولما ذكر النبي ﷺ اندفع

الشاعر بمدحه وارسل النفس على سجيئتها فقال أحياناً لا تزال تعد من غرور
 المدائح النبوية ، والشعر الوجداني . يقول : « ان قلب المسلم عامر
 بحب المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم
 ان هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير .
 ان هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي
 لا يكتحل بنوم . لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان
 أن وجدت أمة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة . اذا كانت في
 الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، واذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً .
 لقد فتح باب الدنيا بفتح الدين . بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أم ولم
 تنجب مثله الانسانية . افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً
 جديداً . كان يساري في نظره الرفيع والضيع ، وبأكل مع مولاه
 على خوان واحد . جاءته بنت حاتم اسيرة مقيدة ، سافرة الوجه ،
 خجلة مطرقة رأسها ، فاستجيب النبي ﷺ ، وألقى عليها رداه .

نحن أعزى من السيدة الطائفة ، نحن عراة أمام أمم العالم .
 لطفه وقهره كله رحمة ، هذا بأعدائه ، وذاك بأوليائه . الذي فتح على
 الأعداء باب الرحمة ، وقال لا تثريب عليكم اليوم . نحن المسلمين من
 الحجاز والصين ويران وأقطار مختلفة ، نحن غيض من فيض واحد .
 نحن أزهار كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة . لماذا لا أحبه ولا
 أحسن اليه ، وأنا انسان ، وقد بكى لفراقه الجذع ، وحنت اليه
 سارية المسجد . إن تربة المدينة أحب اليّ من العالم كله ، انعم بمدينة
 فيها الحبيب .

ولم يزل حب النبي ﷺ يزيد ويقوى مع الايام ، حتى كان في
 آخر عمره اذا جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه أو ذكرت المدينة - على
 منورها ألف سلام - فاضت عينه ، ولم يملك دمعته . وقد ألهمه هذا

الحب العميق ، معاني شعرية عجيبة ، منها قوله ، وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « أنت غني عن العالمين وأنا عبدك الفقير ، فأقبل معذرتي يوم الحشر ؛ وإن كان لابد من حسائي ، فأرجوك يارب أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ ، فأني استحيي ان انتسب اليه وأكون في أمته ، وأقرّف هذه الذنوب والمعاصي .. »

وكان محمد اقبال كثير الاعتماد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه . يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لانساوي هذا الايمان البسيط . يقول في بيت : « ان الفقير المتمرد على المجتمع - يشير الى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغفلتا في أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله الا الله ، محمد رسول الله . » وهناك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه .

هذا هو ايمان محمد اقبال أيها السادة ! وحبّه . ومن تتبع التاريخ عرف ان الحب هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصية الفذة ، والعبقرية النادرة ؛ واليه يرجع الفضل في غالب عجائب الانسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ؛ واذا تجرد منه شخص كان صورة من لحم ودم ، واذا تجردت منه أمة كانت قطيعاً من غنم ، واذا تجرد منه شعر كان كلاماً موزوناً مقفىً فحسب ، واذا تجرد منه كتاب كان مجموع أوراق وجبراً على ورق ، واذا تجردت منه عبادة كانت طقساً من الطقوس وهيكل بلا روح ، واذا تجردت منه مدينة أصبحت تمثيلاً لا حقيقة فيه ، واذا تجردت منه مدرسة او نظام

تعليم ، أصبح تقليداً او تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز له ؛ واذا
تجردت منه حياة كلت الطبائع ، وجدت القرائح ، وأجذبت العقول ،
وانطقات شعلة الحياة ، واختتمت المواهب . هذا هو الحب الصادق ،
الذي يتجلى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، او خوارق
الشجاعة والقوة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر
منه لولا هذا الحب الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه
قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ،
وبريق المادة ، فتورد بذلك على المجتمع . هذا هو الحب الذي يدخل بين
الطين والماء والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدة ، ونحفة فنية ؛
كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ؛ وما من أثر من الآثار
الباقية في الادب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قوية من الحب .

لقد ضل من زعم ، ان العلماء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة
المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وان الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية ،
وحسن اختيار اللفظ ، ودقة المعاني ؛ وان المؤلفين يتفاضلون بسعة
الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والانتاج ؛ وان المعلمين يتفاضلون
بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ؛
وان المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة
والحكمة ، واللباقة ؛ انما يتفاضل الجميع بقوة الحب ، والإخلاص
لغايتهم اذا فاق أحدهم الآخر فلما يفوقه ، لأن الغاية او الموضوع حل
في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ،
وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فاذا تكلم تكلم عن لسانه
واذا كتب كتب بقلبه ، واذا فكر فكر بعقله ، واذا أحب او
أبغض فبقلبه .

لقد جنت المدينة الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جنابة عظيمة ، إذ قضت على هذه العاطفة ، التي كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملاّت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحب الجنسي ، والغرام المادي ؛ ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها ، أن تفهم أن هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً ، هو أقوى من هذا الحب ، وأسأت المدرسة العصرية - وأعني بها نظام التعليم الحديث - إلى الجيل الجديد ، إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب ، واشعالها بحرارة الايمان وحياة الوجدان . فأصبح العالم العصري أشبه بجهاد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ؛ إنما هو دوامة جامدة ، تديرها يد قاهرة ، أو إرادة قاهرة .

فاذا رأيتم أيها السادة ! أن شعر اقبال من نوع آخر ، غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ؛ هذا شعر تهتز له المشاعر ، وتتوتر له الأعصاب ، ويحيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تسكاد تحظم السلاسل ، وتفك الاغلال ، وتتمرد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ؛ شعرٌ إذا قرأه الانسان في لغة الشاعر ، أحسّ بأنه قد مرّ به تيار كهربائي فهزه هزاً عنيفاً ؛ إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا انه ليس إلا لأن الشاعر قويّ الايمان ، قوي العاطفة ، جياش الصدر ، فياض الخاطر ، ملتهب الروح ؛ قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها واشعالها فيه .

العامل الثاني :

اما الأستاذ الآخر الذي يرجع اليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ، فهو استاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الاستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ؛ انما الشأن في معرفته ، وتقديره ، وإجلاله ، والإفادة منه ، والا لكان ابناء البيت ، ورجال الاسرة ، وأهل الحي أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم . ولكن بالعكس من ذلك رأينا ان العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ! ضائع في بيته ، مهجور في داره ، يزهد فيه أولاده ويستهمن بقيمته افراد أسرته ، ويأقن رجل من أقصى العالم فيعترف من بحر علمه ويتضلع من حكمه .

لاتذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الاخوان ! فذاك الاستاذ العظيم هو القرآن الكريم ، الذي أثر في عقلية اقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية . ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل ، حديث العهد بالاسلام ، فيه من الاستطلاع والشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب ، فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار . وقد وصل هذا المهتدي اليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب . كان سرور محمد اقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق اعظم من سرور « كلبس » لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه . أما الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد ، فكانوا ينظرون الى « كلبس » واصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح ، فانهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد اقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس

ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن ، واستطعامه إياه .
وقد حكى قصته لقراءة القرآن . قال : « قد كنت تعمدت أن أقرأ
القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني ماذا
أصنع ؟ فأجيبه بأني أقرأ القرآن وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات
يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي . وذات يوم قلت له : مابالك يآبني !
تسألني نفس السؤال وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة
السؤال من غد ؟ » فقال : إنما أردت أن أقول لك : يا ولدي ! أقرأ
القرآن كأنما نزل عليك . ومنذ ذلك اليوم بدأت أنفهم القرآن
وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت .

ولم يزل محمد اقبال الى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ،
وبطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ؛ فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ،
واشراق جديد ، وقوة جديدة . وكلما تقدمت دراسته ، واتسعت
آفاق فكره ، ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم
الأبدي وأساس السعادة ، ومفتاح الأفعال المعقدة ، وجواب الاسئلة
المحيرة ، وأنه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ولم يزل يدعو
المسلمين وغير المسلمين الى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ، ودراسته
والاهتداء به في مشا كل العصر ، واستفتائه في أزمان المدنية ، وتحكيه
في الحياة والحكم ؛ ويعتبر على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب ،
الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين . يقول في مقطوعة
شعرية : « إنك أيها المسلم لاتزال أسيراً للمتزعمين للدين ، والمتكبرين
للعلم ؛ ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً . إن الكتاب الذي
هو مصدر حياتك ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك
الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتبوت بسهولة . فواعجبا ! قد

أصبح الكتابُ الذي أنزلَ لِيمنحك الحياة والقوة ، يُتلى الآن لِموت
براحة وسهولة « (١) .

وقد أصبح محمد اقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر ، لا
يُفضّل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفة وهدية لأغنى رجل
في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ؛ ولذلك لما دعاه المرحوم نادر
خان ملك افغنستان الى كابل ، ونزل ضيفاً عليه أهدى محمد اقبال الى
الملك نسخة من القرآن ، وقدمها اليه قائلاً : « ان هذا الكتاب
رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ،
وبقوته كان عليّ فاتح خير » . فبكى الملك وقال : لقد أتى علي نادر
خان زمان ، وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته
كل باب « (٢) .

العامل الثالث :

والركن الثالث ايها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته
هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والإعداد بقيمتها ، والاحتفاظ
بكرامتها وقد عامل نفسه بما نصح به غيره في قصيدة . يقول فيها :
« انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرة شخصيتك ، حتى تكتشف سر الحياة .
ما عليك اذا لم تنصفي وتعرفني ، لكن انصف نفسك يا هذا ! واعرفها ،
وكن لها وفياً . ما ظنك بعالم القلب ، هو كله حرارة ، وسكر ،
وحنان ، وشوق ؛ أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال . إن
ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل .
إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الا فرنج ولا اختلاف الطبقات ، لقد

(١) ارمان حجاز

(٢) مثنوي مسافر

كدت أذوب حياءً ، وتندى جبيني عرقاً إذ قال لي حكيم : اذا خضعت لغيرك ، أصبحت لامتلك قلبك ولا جسمك ،^(١) .

وقد كان اقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ؛ يرى أن العبد يسو بها الى درجة الملوك ، بل يعلم اذا كان جريئاً مقداماً . يقول في قصيدة : « إن الانسان اذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك بأداب هذه المعرفة انكشفت على هذا المملوك أصرار الملوك . ان ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله ، افضل من أكبر ملوك العالم . إن الصراحة والجرأة من اخلاق الفتيان ، وإن عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب . » وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لايقبل رزقاً اذا قيد حرية . يقول في نفس القصيدة : « يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمي ، ويمعني من حرية الطيور »^(٢) .

وكان اقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته - في غير صلف وغرور - فيضن بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره . يقول في مقطوعة : « لك الحمد يارب ! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلطين . لقد رزقتني حكمة وفراصة ؛ ولكني أحمدك على أني لم أبعها لملك من الملوك »^(٣) . ويقول مقتخراً : « إني من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق ، ولكني غني النفس أيّ » . وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة ، يقول فيها : « اذا لم تعرف رازقك ، كنت فقيراً الى الملوك ، واذا عرفته ، افتقر إليك .

(١) بال جبريل

(٢) بال جبريل

(٣) أيضاً

كبار الملوك . إن الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتل للروح ،
وأنت بخير بينهما . إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت
البطن (١) . ولا شك أن محمد أقبال اختار القلب .

لذلك كان يشور إذا جرحت كرامته ، وامتنحت عفته . قدم
إليه رئيس وزارة في دولة ، في عيد ميلاد محمد أقبال ، هدية محترمة من
النقود ، فرفضها ، وقال : « إن كرامة الفقر تأتي عليّ أن أقبل
صدقة الأغنياء » . وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك
في إفريقيا الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب
الملك تكون سافرة ، تستقبل الضيوف في الولايم الرسمية ، وتكون
مع زوجها في الحفلات . فأشير عليه بذلك ، فرفضها ، وقال : « مادام
هذا شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي » .

وقد كان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوته ومواهبه ؛
يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة في هذه الحياة ، وليس له أن يضع
نفسه محل الشاعر ، الذي ليست له رسالة ، والنظامين الذين ينظمون
في كل مناسبة . فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه . يقول في أبيات
وجهها إلى رسول الله ﷺ : « إني لأشكو إليك يا سيّد الأمم ! إن
أصدقائي يعتقدون أنني شاعر نظام ، فيقترحون عليّ اقتراحات » .
ويقول في بيت آخر : « أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله !
إنك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون أرشح
لموت فلان وفلان ، فماذا أفعل ؟! » .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، وبما
انتفع بها الاسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكري

(١) بال جبريل

والهيام الأدبي ، الذين يصاب بها أديباؤنا وشعراؤنا وكتابنا وعلماؤنا ، فينتجعون كل كلاً ، ويميمون في كل واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ؛ ويمدحون كل شخص ، ويظلمون ، الى آخر حياتهم ، لا يعرفون أنفسهم ولا يعلمون رسالتهم . أما الدكتور محمد اقبال ، فكان من توفيق الله تعالى ومن حسن حظ الاسلام والمسلمين في الهند ، أنه عرف نفسه في أول يوم ، وقدر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وایجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والایمان برسالتهم ، والطموح الى القوة والحرية والسيادة . كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ان لا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر وغلبه . كانت سائل القرية ، فياض خاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ . وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ؛ وكان شاعراً فناناً وصناعاً ماهراً سلم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجور . فما من شاعر ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة والتراكيب والمعاني والافكار والاغراض . وهو من أفراد شعراء العالم في القرن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات . وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الانجليزي والاماني ، فضلا عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه . ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد اقبال فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ؛ ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية وقوته الأدبية ، وعبقريته الفنية لرسالة الاسلام . فلم يكن شاعر ملك ، ولا شاعر الوطنية ، ولا شاعر المهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ؛ بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ولطيب الازهار نفحات الهواء فيكون أكثر انتشاراً . فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد

حكيمته ، يسبقها ويوطئ لها أكثافاً ، ويدلل لها صعباً ، ويفتح أبواباً . وكان شعره من جنود الاسلام - والله جنود السموات والارض - ولا أعرف أحداً أَرْضَى الله ورسوله بشعره ، بعد حسان بن ثابت رضي الله عنه ، مثل ما أَرْضَى هذا الشاعر المسلم . فأيقظ أمة ، وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة وطموحاً الى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم الاسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لاترضى إلا بدولة تحكمها وتدير دفتها . أوجد شعره القوي المراز القلق الفكري ، والاضطراب النفسي ، الذي عم هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الاسلامي بصفة خاصة فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الاجانب ، حتى أصبحت في يوم من الايام الدولة المسلمة الحرة حقيقة راهنة وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة وتمييز النفوس لها مثل ما يرجع الى هذا الشاعر الإسلامي . وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية والتذمر من الحاضر ، والتطلع الى المستقبل ، والقلق النفسي ، فاذا تم هذا كله ونضج ، قامت دولة ؛ فإن كان شعر قد أقام دولة ، وأحدث ثورة فكرية ، كانت سبب الانتقال من حياة الى حياة ومن وضع الى وضع ، فهو من غير شك ، شعر اقبال . وما ذاك أيها الاخوات إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره الصحيح لمواهبه وقوته ، ووضعها في محلها ، والغيرة عليها ، من أن تضيع في موضوعات تافهة ، وألفاظ فارغة ، وألوان زاهية ، ومظاهر الجمل الفانية . وكم ضاع رجال من العبقرين واهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة أو باللغة المصرية « بالمزاد العتيق » ،

وقتلوا انسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون .

العامل الرابع :

والمرئي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع اليه الفضل في تكوين ميوله
وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدة المعاني ، وتدقيق الافكار
هو انه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاستغفال بالمطالعة ،
بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرض للنفحات السحرية ،
ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه اليه ،
ويتزود بنشاط روحي جديد ، واشراق قلبي جديد ، وغذاء فكري
جديد ؛ فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الانسان فيه
قوة جديدة ، وحياة جديدة ، ونوراً جديداً ؛ لأنه يتجدد كل يوم ،
فيتجدد شعره ، وتتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السحر ،
ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ، ومفكر ، لا يستغني عنها
أكبر عالم أو زاهد . يقول في بيت : « كن مثل الشيخ فريد الدين
الطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد
الغزالي في علمه وذكائه ، وكن مع من شئت في العلم والحكمة ،
ولكنك لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك انسة في السحر » . وكان
شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به . يقول في مطلع قصيدة :
« رغم ان شتاء انجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في
الجسم عمل السيف ، ولكنني لم أترك في لندن التبكير في القيام » .
وكان لا يرغب به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً . يقول في بيت : « خذ
مني ماشئت يارب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر ، ولا تحرمني

نعيها . بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الآفة السحرية والحرقه
القلبية الى شباب الامة المتنعين ، فتحرّك سواكن قلوبهم ، وتنفتح
الحياة في هياكلهم . يقول في قصيدة : « اللهم ! جرح اكباد الشباب بسهام
الآلام الدينية ، وأيقظ الآمال والاماني النائمة في صدورهم . بنجوم
سمائك التي لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً
وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الاسلامي لوعة القلب ،
وارزقهم حبي وفراسي » . ويقول في قصيدة : « اللهم ! ارزق الشباب
أنّي في السحر ، وانبت لصقور الاسلام القوادم والحوافي ، التي تطير
بها وتطّاد ؛ وليست لي امنية يارب ! إلا ان تنتشر فراسي ، ويعم
نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها
السادة ! هو « المنشوي المعنوي » بالفارسية وقد كتبه مولانا جلال الدين
الرومي في ثورة وجدانية ونفسية شديدة ، ضد المرجة العقلية الاغريقية
التي اجتاحت العالم الاسلامي في عصره ؛ وقد انتصر فيه للايان والوجدان
انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب الصادق
والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية ،
التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية والأوساط العلمية في
الشرق الإسلامي . والكتاب متدفق قوة وحياة ، زاخر بالأدب العالي
والمعاني الجديدة ، والامثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت
البديعة ؛ وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الربان الذي يلي هذه المنظومة
التي لا تزال فريدة في موضوعها في مكتبة الاسلام العامرة ، ولا يزال
له التأثير القوي في تحرير الفكر ، من رق العقل ، والتقديس الزائد

لقيم العقلية ، والخضوع للمادية الرعناء ، وبيعت التمرد على عالم المادية الضيق والتطلع الى أجواء الروح الفسيحة . وكان العالم في عصر محمد اقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي ، الذي جرف جميع القيم الروحية والحلقية ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بُعداً عن المعاني الروحية ، والمبادئ الحلقية ، وما بعد الطبيعة . فاصبحت حضارة عقلية ميكانيكية . وقد قضى محمد اقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه المتجدد ، وقلبه الحار الفاض بالايان . وفي هذا الاضطراع الفكري والاضطراب النفسي ، ساعده المثنوي مساعدة غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحل به كثيراً من ألغاز الحياة . ولم يزل محمد اقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثير من أبياته ، ويعزو اليه كثيراً من الحقائق والحكم . يقول في بيت يخاطب فيه احد المأخوذين بسحر الغرب : « قد سحر عقلك سحر الافرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة ايمانه . لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بجرأ من العلوم . ويقول في بيت : « لقد أفتت من صحبة شيخ الروم ان كلما واحداً - يشير الى سيدنا مومي - هامت على راحته ، يغلب الف حكيم قد أحنوا رؤوسهم للتفكير » . وكان محمد اقبال يرجو أن يجدد علمه ورسالته في القرن العشرين ويخلفه في مهمته العلمية والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار الى ذلك إشارة لطيفة . يقول في قصيدة : « لم ينهض رومي آخر من ربوع العجم ، مع أن ارض ايران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز ^(١)

(١) مدينة في إيران ، منها شمس الدين تبريزي ، شيخ الرومي في التصوف .

كما كانت ؛ إلا أن اقبال ليس قانطاً من تربته ، فاذا سقيت بالدموع
أنبت نباتاً حسناً ، وأنت بمحصل كبير .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد اقبال ، وهذه
هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ؛ ولا شك انها اقوى
من آثار المدرسة الاولى . فاذا كانت المدرسة الاولى منحه مفردات
اللغات المتعددة ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة
الثانية كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه ، وامته
وقد منحه المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والايمان القوي ، والحلق
المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

★ ★ ★

(١) نظرة محمد اقبال إلى نظام التعليم العصري ومركزه

نقده لنظام التعليم :

نظر محمد اقبال الى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعف كثيرة ، وجوانب نقص عظيمة ، فتناولها بالانتقاد في صراحة وشجاعة ، ولفت اليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنبايات المدرسة - ويقصد بها نظام التعليم الحديث - على هذا الجيل شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره . يقول في بيت : « لقد خرجت من المدرسة و « الزاوية » حزيناً ، لم أجد فيها الحياة ، ولا الحب ، ولا الحكمة ولا البصيرة » . ويقول في بيت آخر : « أما رجال المدرسة ففاقدوا البصر ، وميتوا الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصروا المهمة ، ضعيفو الطلب ، قليلو البضاعة » .

جنبايات المدرسة :

ومن رأي محمد اقبال ، أن التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جناية عظيمة اذ اعتنت بتربية عقله ، وثقيف لسانه ، ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه ، وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه ، وتمذيب نفسه ؛ فنشأ جيل غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ؛ قد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين

(١) من محاضرة ألقيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ جادى الثانية ١٣٧٠ هـ .

ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ؛ فالأول ضخم كبير ، والثاني ضعيف ناعم . وهو إذا وصف هذا الجيل ، الذي عاش فيه وعرفه عن كتب واتصال ، صورته تصويراً صادقاً ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد . يقول :

« ان الشباب المثقف فارغ الأكواب ، ظآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلّم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً . هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال . ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم . يبني الاجانب من تراهم الاسلامي كنائس وأدياراً ؛ شباب ناعم ، رخو رقيق في الشباب كالحرير . يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون ان يفكروا في الحرية ، ان المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبز كان . أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية فيمدون أكفهم الى الاجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم في ذلك . إن المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يجبرهم بشرفهم ، ولم يعرفهم بشخصيتهم . مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ، ولا يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله . يشترون من الافرنج اللات ومناة . مسلمون ، لكن عقولهم تطوف حول الاصنام . إن الافرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم ، وقلوب لا تذوب بالقوارع . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب ، يطوف حول الماديات . قلوبهم لا تتلقى الحواطر المتجددة ، وأفكارهم لا تساوي شيئاً ، حياتهم جامدة ، واقفة ، متعطلة .

ويذكر محمد اقبال ان السبب في جبن هذا الجيل وضعفه الخلقي

هو الوضع التعليمي الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقي ونشأة الشباب المتحلة ، يقول في قصيدة : « لا أستغرب أيها الشباب المتعلم ! إنك حبيب جبان ، فإن قلبك بارد لالوعة فيه ولا حرارة ، ونظرك غير عفيف . إن الشباب المثقف الذي استنارت عينه بنور الافرنج قد يكون لبقاً في الحديث متشدقاً في الكلام ، ولكن عينه لا تعرف الدموع وقلبه لا يعرف الحشوع » . ويرى محمد اثبات ان المدرسة هي المسؤولة عن هذا المسخ الخلقي وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع الى المحل الوضعي يقول في بيت : « أشكو اليك يا رب ! من ولادة التعليم الحديث ، إنهم يربون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور ، وأشبال الاسود تربية الحروف » . ومن أسباب هذا الضعف النفسي هو العقل المثبط الذي يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ويحذر من سوء العاقبة ويكبر الاخطار . يقول في بيت : « إن التعليم قد باعدك من الجنون الذي كان ينازع العقل ، ويقول له : لا تلعن ولا تشبطني عن المغامرة . إن الاسرار التي حجبها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة في خلوات الجبال والصحارى » . ومن أكبر أسباب هذا الضعف ، الذل والتقدير الزائد للمادة والنظر الى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم . يقول في بيت : « إن ذلك العلم سمّ نافع للأفراد الذين ليست لهم غاية ، إلا حفتان من شعير » (يعني الراتب الذي يتقاضاه الموظف) .

مآخذه على التعليم :

ومن أكبر مآخذه على هذا التعليم انه يبعث على التعطال وحب الهدوء والراحة ، ويجعل المتعلم كالحيط الهادئ ، لا حركة فيه ولا اضطراب . يقول في بيت : « رماك الله أيها المتعلم بطوفان ، فان بجرك هادئ لا اضطراب في موجه » . وكذلك يبعث هذا التعليم في الشباب المسلم « افرنجية » .

وحب الزينة ، يقول في قصيدة : « ان مقاعدك ايها الشباب المسلم ! افرنجية
وزرايك ايرانية ، واني أكاد أبكي دما اذا رأيتك في هذا الترف والبذخ .
لاخير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا مادمت متجرداً من قوة عليّ
وامتغناء سلمان » .

ومن مآخذه على هذا التعليم انه يحدث الفوضى الفكرية . يقول
في بيت : « ان المدرسة تحرر العقل بلا شك ولكنها تترك الافكار بغير
نظام وارتباط » .

ومن مآخذه على نظام التعليم العصري والمدرسة التي تمثله وتؤدي
رسالته انها مصابة بالتقليد والجود وبجردة من الابتكار والاجتهاد . يقول
في قصيدة : « ان العالم أسير التقاليد والاوزاع ، وان المدرسة منحصرة في
نطاق ضيق ، يا للأسف ! ان الرجال الذين كانوا يستطيعون ان يكونوا أئمة
زمانهم أصبحت عقولهم بالية ، وفقدت كل نشاط وجدة فاقنعوا بتقليد
عصرهم » .

ان الدكتور محمد اقبال لا يرى ان هذا الجيل حي قائم بنفسه ،
ويفكر بمقله ، انه يعتقد انه ظل لأوروبا ، وان حياته عارية من الغرب .
يقول في بيت : « يتراءى لك ان الشاب المتعلم حي يرزق ولكنه في
الحقيقة ميت ، استعار حياته من الغرب » . ويخاطب المتفرنج ويقول :
« ليس وجودك الانجلي الا فرنج ، لانك بناء قد بنوه . هذا الجسم العنصري
فارغ من معرفة النفس ، فأنت غمد محلي بغير سيف . وجود الله غير
ثابت في نظرك ووجودك انت غير ثابت في نظري » .

ومن رأيه ان نظام التعليم الغربي قد ضعف الروح المعنوية في
الشباب المسلم وجنى على رجولته جنابة عظيمة ، فأصبح شباباً رخوارقيقاً
مانعاً أغير ، لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المصروفه . يقول في قصيدة

يخاطب فيها بعض المريين: وحيا الله شبيبتيك، يا مربي الجيل الجديد!، ألق عليهم درس التواضع، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية. علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج. ان عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم، فانظر كيف تعيد الثقة الى نفوسهم وتحارب الفوضى الفكرية». وكان لا يفتقر هذه الجريمة يقول في موضع آخر: «انا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً، الحكمة التي تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفاً».



نظرة محمد اقبال الى العلوم والآداب

آراؤه في العلوم والآداب :

للدكتور محمد اقبال آراء حصيفة في العلوم والآداب والشعر ، هي عبارة تفكيره وتجاربه . منها ، أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله ، وقوة عظيمة ، يُحدث به صاحبه انقلاباً في المجتمع ؛ وثورة فكرية ، يضرب به الاوضاع الفاسدة الضربة القاضية ، ويشعل القلوب حماسة وغضباً ، ويشعل البلاد ناراً وثورة ، ويملأ النفوس قلقاً واضطراباً ، وتدمراً من الشر ، وتطلعاً الى الخير ؛ فلا بد أن يكون في قلم الاديب والشاعر التأثير الذي كان في عصا موسى ، وأن يؤدي رسالته في العالم ؛ وكل أدب استغل لجمع المادة أو ارضاء الاغنياء والاثرياء أو إثارة الشهوات ، أو على الاقل كان أداة للهو والتسلية ، والتذوق بالجمال والتغني به ، فهو أدب ضائع مظلوم ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ماوهب له . يقول في بيت : « أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعي ؛ ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر » . ويعتقد محمد اقبال أن الأدب لا يصل الى حد الإيجاز حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحي ، ويُسقى بدمه .

يقول محمد اقبال هذا ، ويرى بالعكس أن الادب في الشرق

الإسلامي قد أصبح تتحكم فيه المرأة ؛ فأصبح لا يتحدث إلا عنها ، ولا يتغنى إلا بها ، ولا يبحث إلا فيها ، ولا يصور إلا إياها ، ولا يرى في الكون إلا ظلها وجمالها ؛ وهذه عقيدة جديدة في « وحدة الوجود » التي يمكن ان تسمى « الوجودية الادبية » . وكأن الادب المصري ينادي بلسان حاله (لا موجود إلا المرأة) أو (لا موجود إلا الفتاة) . يقول محمد اقبال : « أسفاً للشعراء والرسمين وكتاب القصة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة » . ولا شك انه تصوير صادق للاتجاه الادبي العام في الشرق الإسلامي ، واندفاع الادب المنهور وراء المرأة ، وهيامه بها ، وإعراضه عما سواها .

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأي خاص . فهو يرى أن الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن الفلسفة التي تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية ، وتغلب بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ولا تدخل في صميم الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، وتعيش في العزلة عن العالم ، إنما هي فلسفة منهارة لا تستطيع ان تعيش . يقول في بيت : « ان الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة » .

وقد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ونقدها ، والتفكير الطويل العميق ، الى اخفاق الفلسفة في حل مشاكل الحياة ؛ وانها صدقة لامعة خالية من اللؤلؤ ، وهو بمعزل عن الحياة والكفاح ، لاتساعد البشر ولا تمنحهم دستوراً للحياة ؛ وان الدين هو الذي ينظم المجتمع ، وينور الطريق ، ويقدم دستوراً للحياة ، وان سيدنا محمد ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم . عرف الشاعر صديقاً له من الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً ، وتزلزلت عقيدته الإسلامية . فكتب اليه محمد اقبال قصيدة ، يقول : « أنا رجل كما تعرف ، أنتهي في أصلي الى مؤمنات (المعبد الوثني المعروف في

الهند) وكان ابي من عباد اللات ومناة ، وإن امرتي عريقة في البرهمية ؛ ولكن يجري في عروfk دم الهاشمين ، وتنتمي الى سيد الأولين والآخرين ؛ وقد امتزجت الفلسفة بلحمي ودمي ، وجرت مني مجرى الروح . أنا ، وإن كنت لأحسن شيئاً ، فلا شك أني نزلت في أمق هذه الفلسفة ، وتغلغلت في أحشائها ، وبعد ذلك أقول : إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة ، وإنما لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة ؛ وإن بحوثها وتدقيقاتها تقضي على روح العمل . هذا « هيجل » ، الذي تبالغ في تقديره ، إن صدفته خالية من اللؤلؤة وإن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام . لقد انطفأت شعلة القلب في حياتك ايها السيد ! وفقدت شخصيتك ، فأصبحت أسيراً « لبرجسان » ان البشرية تريد ان تعلم : كيف تتقن حياتها وكيف تتخذ شخصيتها ؛ ان بني آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستوراً للحياة ، ولكن الفلسفة لاتساعدهم في ذلك . بالعكس من ذلك ، ان المؤمن اذا نادى الآفاق بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون . ان الدين هو الذي ينظم الحياة ، وانه لا يكتسب إلا من ابراهيم ومحمد ﷺ ، فعليك ايها السيد ! بتعاليم جدك ﷺ . الى متى يا ابن علي ! (رضي الله عنه) تقلد ابا علي (ابن سينا) ، اذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشي (يعني رسول الله ﷺ) خير لك من القائد البخاري (يعني ابن سينا) .

وبالاجمال ان الدكتور محمد اقبال يرى ، أن نظام التعليم الحديث قد أخفق في أداء رسالته وأخفق في إنتاج جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ، ويحسن استعمال مادته العلمية وثروته الثقافية ويضع كل شيء في محله ، ويعيش حياة سعيدة مطمئنة . بالعكس من ذلك ، وجد جيل مثقف ثقافة عالية ، يعرف عن مجاهل افريقية والقطب الشمالي ، وعن حياة الحيوان والنبات شيئاً كثيراً ، ولا يعرف عن نفسه إلا قليلاً .

ويسخر التجارة والكهرباء ، ويسخر الطاقة الذرية في الزمن الاخير ولا يملك نفسه وقوته . ويطير في الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسمك ، ولا يحسن أن يمشي على الارض ؛ وما ذلك إلا لأن التعليم قد اختل ميزانه ، وفسد مزاجه ؛ وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟! يقول في قصيدة : « من الغريب ان من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح . وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره . ومن عكف على الانغاز مجلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر » .

تصوير للشباب المسلم :

وفي الأخير ان الدكتور محمد اقبال يتبنى للاسلام جيلاً جديداً . شبابه طاهر نقي وضربه موجع قوي ، اذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وان كان الصلح فهو في وداعته كفزال الحمى ؛ يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل . هذا مع الاعداء وذاك مع الاولياء . اذا تكلم كان رقيقاً ، واذا جدّ في الطلب كان متديداً حفيماً . وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً . آماله قليلة ، ومقاصده جليلة . غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى . غيور في العسر رؤوف كريم عند اليسر . يظماً إن ابدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة . اذا كان بين الاصدقاء كان حريراً في النعمة ، وان كان بين الاعداء كان حديداً في الصلابة . كان طلا وندى ، تفتتح به الازهار وتترف به الاشجار ، وكان طوفاناً تضرع به الامواج وترتعد له البحار . اذا عارض في سيرة صخوراً وجبالاً ، كان سلافاً ؛ وإن مر في طريقه مجدائق ، كان ماءاً سلسلاً . يجمع بين جلال ايمان الصديق وقوة عليّ ، وفقر أبي ذرّ وصدق سلمان ،

يقينه بين أوهام العصر ، كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء . يُعرف
في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر . الشهادة في سبيل الله
أحب إليه من الحكومات والغنائم يقتنص النجوم ، ويصطاد الاسود ،
ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كانا . يرفع قيمته
ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتره غير ربه . شغلته مآربه
الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس . وشعر
إنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في
حسن صوته . .



الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال

بحث عن انسان :

قال مولانا جلال الدين الرومي في بعض مقطوعاته : « رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلًا ، كأنه يبحث عن شيء . قلت له : يا سيدي ! تبحث عن ماذا ؟ قال : قد ملئت معاشرمة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن انسان في هذا العالم . لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والاقزام ، الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال ، يلا عيني برجولته وشخصيته ويروّح نفسي . قلت له : لقد غرّتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنضيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً . قال الشيخ : اليك عني ، أيها الرجل ! فأحب شيء الى نفسي ، أغزه وجوداً ، وأبعده منلاً » .

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد « أمرار خودي » . ولا أظن أن محمد إقبال اختار هذه المقطوعة ، وحلّى بها صدر كتابه إلا لأنها تصور نفسيته ، وتعبّر عن شعوره ؛ فقد كان يحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن « الانسان الكامل » ، فهل وجد محمد إقبال ضالته ، ياترى ؟ وظنر بمطلوبه أم قطع من الرجاء ؟ .

واذا كان الجواب : نعم لقد وجد محمد اقبال ضالته من الناس ، وظفر بوطره من الرجال ، فنأكدوا أنه فتح أعظم من فتح « كليمس » ، واكتشاف أجمل خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد ؛ لأنه اكتشاف الانسان المفقود ، وعثور على الانسانيه الضائعة ، ولا خير في العالم - قديمه وجديده - اذا فقد الانسان وضاعت الانسانية ؛ وحاجة العالم الى انسان أشد اليوم من حاجته الى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الانسان الكامل :

ان محمد اقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الانسان المنشود ، وعرفه واتصل به ، ونراه قد هام به هياماً ، وتغنى في شعره بانسانيته وشخصيته ، فأين وجدته محمد اقبال ، وكيف السبيل الى هذا الانسان الرفيع ؟

أخاف ان أفاجمكم بما لاقته درونه ولا تنتظرونه اذا اخبرتمكم أن الانسان الكامل الذي وجدته محمد اقبال ، فوجد فيه ما كان ينشده ، من معاني الانسانية والقوة والحياة والجمال والكمال ، هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

ان هذا الجواب مفاجأة حقاً للذين يحملون للمسلم صورة قذمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع ، الذي قدمه الشاعر ، للانسان الكامل ، ولكن محمد اقبال بالعكس من ذلك يرى في المسلم الضالة المنشودة والصورة الكاملة للانسانية .

المسلم المثالي :

ولكنه يعني ذلك المسلم المثالي ، الذي يمتاز ، بين أهل الشك والظن ، بإيمانه وبقينه ، وبين أهل الجبن والخوف ، بشجاعته وقوته

الروحية ، وبين عباد الرجال والاموال والاصنام والملوك بتوحيده
الحاصل ، وبين عباد الاوطان والالوان والشعوب بأفاقته وانسانيته ،
وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على
موازين المجتمع الزائفة وقيم الاشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والانانية
بزهده وايثاره وكبر نفسه ؛ ويعيش برسالته ولسالته . ذلك المسلم
الحق الذي مهما اختلفت الاوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة
التي لا تتغير ولا تتحول ، وأما ماعدها فزبد يذهب جفاءاً ؛ ذلك
المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، أما ماعدها
فشجرة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار . يقول في بيت :
« انك أيها المسلم في العالم وحدك ، وما عداك سراب خادع ودرهم
زائف » . ويقول في بيت آخر : « ان ايمان المسلم هو نقطة دائرة الحق ، وكل
ماعدها في هذا العالم المادي وهمّ وطمس ومجاز » .

* * *

المسلم له وجودان :

ان المسلم له وجودان ، الوجود الانساني ، والوجود الايماني ، أما
الوجود الانساني : فهو الوجود الذي يشاركه فيه كل انسان ، يولد
كعامه الناس وينشأ ويكبر كعامه الناس ، ويجوع ويظمأ ، ويشعر
بالبرد والحر ، ويأكل ويشرب ، ويصح ويمرض ، ويموت ويحيا ،
ويفقر ويغني ، ويزرع ويتجر ، ويعول العيال ويربي الاطفال ، ويقتني
الاموال ، ويحكم البلاد والرجال ؛ فهو في هذا الوجود خاضع للسنن
الطبيعية ، تجري عليه كما تجري على غيره ، وتنفذ فيه كما تنفذ في أي
إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ، ولا تتسامح معه لأنه
يحمل اسماً خاصاً ، وينتمي الى جنس خاص ، ويلبس لباساً خاصاً
وهو ذرة حقيرة في صحراء الوجود المتزامية ، وموجة عادية تأتي وتذهب
في بحر الكون الزاخر ، من غير ان يشعر بها أحد ، فاذا اقتصر

المسلم على هذا الوجود البشري العام وعاش كإنسان لأقل ولا أكثر ،
كان كائنًا ضعيفاً فانياً ليست له قيمة كبيرة في نظر صيرفي الوجود ؛
واذا مات في وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم
شيئاً كبيراً .

أما الوجود الإيماني فهو أنه يحمل رسالة خاصة ؛ رسالة الأنبياء
والمُرسلين ، ويؤمن بمبادئ خاصة ، ويعتقد اعتقاداً خاصاً ، ويعيش لغاية
خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ، ودعامة من دعائم
العالم ، وحاجة من حاجات البشرية ، يستحق أن يعيش ، ويستحق
أن ينتصر ، ويستحق أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش ويجب أن
يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية ، وحاجة
الكون إليه ليست أقل من حاجتها إلى الماء والهواء والنور والحرارة ،
فاذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة ، كانت
معاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق ،
التي تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ، ويتكفل المسلم بإعلانها ،
والقيام بها والجهاد في سبيلها ؛ فلو لا هو لضاعَت هذه الغايات والرسالات
وأصبحت سرّاً مكتوماً ؛ إذن فمركزه في العالم ، وبقاؤه كبقاء
الشمس والكواكب النيرة ، تنقرض الأجيال والأمم ، وتحول الأنهار
مجرأها ، وتخرب عمارت وتعمر خرائب ، وتقوم حكومات ، وتنتقل
حكومات ، وتأتي مدنيات وتذهب مدنيات ، وهو قائم لا يزول ولا يحول .

المسلم حي خالد :

يعتقد محمد إقبال أن المسلم حي خالد ؛ لأنه يحمل رسالة خالدة ،
ويحتضن أمانة خالدة ، ويعيش لغاية خالدة ، يقول في بيت :
« لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم ؛ لأن وجوده رمز لرسالات

الأنبياء ، وأن أذانه إعلان للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ . ويقول في بيت آخر : « المسلم رسالة الله الاخيرة » فلا يعترها النسخ والتبديل . ولا يعني محمد اقبال أن كل فرد من أفراد الامة الاسلامية حي خالد ، يفلت من الموت ، ويتمرد على القانون الطبيعي ؛ كيف ، وقد قال الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وقال (أفإن مت فهم الخالدون) ، ولكن محمد اقبال يرى ان المسلم موج من أمواج بحر الاسلام الخضم ؛ يأتي موج ويذهب موج ، وتترامى هذه الامواج في أحضان البحر وتتلشى في وجوده ، والبحر لا يتغير ؛ فالبهر امتداد دائم ، وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة ، كبحر الحياة وبحر الوجود تتبدل أمواجه - وهي أفراد البشر - ولا يتبدل كيانه .

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد اقبال خطوة أخرى ، فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا الكون ؛ خلق العالم له وخلق هو الله . لقد كان العلماء يتباحثون في صحة حديث « لولاك لما خلقت الافلاك » ، ولكن محمد اقبال لانتمه صحة هذا الحديث لفظاً ورواية ، انه يفهم من القرآن ، ومن دراسة الاسلام وطبيعة المسلم ، ورسالته السامية ، ويفهم من دراسة التاريخ الانساني الواسعة العميقة ، والاطلاع الواسع على أوضاع العالم وطبائعه الاشياء ، أن المسلم الذي هو جارحة لرسول الله ﷺ وخادمه ، هو مصداق معنى الحديث ؛ فضلا عن الرسول عليه الصلاة والتسليم ، فهو خليفه الله في أرضه . خلق لأجله العالم ، وعلّمه الأسماء ، وحكمه في الارض ، وأرثه خيراتها وخزائنها ، وألقى اليه بمقاليدها ؛ فيجب عليه أن يعتقد ، ويقتنع بأن العالم خلق له ، ويجاهد ويجهد لتطبيق هذه العقيدة ، وتحقيق هذه الفكرة . يقول في بيت : « ان العالم تراث

للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمننا كاملاً من لا يعتقد
أن العالم خلق له .

مقام المسلم مقام الامامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال ان المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، وليسائر
الركب البشرى حيث اتجه وسار ؛ بل خلق ليوجه العلم والمجتمع
والمدينة ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملي عليها إرادته ؛ لانه
حاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالم
وسيره واتجاهاته ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، ان مقامه مقام
الامامة والقيادة ، ومقام الارشاد والتوجيه ، ومقام الأمر الناهي ،
اذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن
يستسلم ويخضع ، ويضع اوزاره ، ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور
عليه وينازله ، ويظل في صراع معه وعراك ، حتى يقضي الله في امره .
يقول في بيت : « يقول من لاخلاق له : دُر مع الدهر حيث دار
واذا لم يسالمك الزمان فسالمه ؛ وأنا أقول اذا لم يسالمك الزمان ،
فصارعه وحاربه ، حتى يقيء إلى أمر الله » . ويرى أن المؤمن غير
مأذون بممارات الاوضاع ؛ بل هو مكلف بمصادمة الاوضاع الفاسدة
يرد الامر الى نصابه ، ويقيم سائفة الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح
الفاسد ، وان كلفه ذلك عملية الهدم والنقض ، والعملية الجراحية ؛
فان كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والاصلاح . يقول في بيت :
على المسلم ان يربي في نفسه الروح ، وينشئ في هيكله الحياة ، ثم
يحرق هذا العالم الفاسد بجمرة إيمانه ووهج حياته ، وينشئ عالماً
جديداً . يقول متمثلاً : « سأني ربي : هل ناسبك هذا العصر وانسجم
مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ياربي . قال : فحطمه ولا تبالي » .

ويرى محمد إقبال ان الخضوع والاستكانة للاحوال القاسرة ،
والاوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والاقزام .
يقول في بيت : « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما
المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد » . ويقول :
« اذا احسن المؤمن تربية شخصيته ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع في العالم
الا ما يرضاه ويحبه » .

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال ان المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح في التاريخ
ومطلع فجر السعادة في العالم ، وانه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب
ورسول الحياة ، ومؤذن الفجر في الليل البهيم ، وان أذانه لا يزال صيحة
تدوي في هدوء الليل وسكون الموت ، فيعيد الى هذا العالم النائم
الناعس المتعب حياته ونشاطه ، ويؤذن بطلوع الصبح الصادق ، وانصرام
الليل الغاسق . وعلى هذا الاذان الصارخ والنداء العالي ، الذي ارتفع
من جبل « أبو قبيس » قبل ثلاثة عشر قرناً ، استيقظ هذا الكون بعد
السهبات العميق ، الذي غط فيه خمسة قرون وأكثر ؛ وكان نفخة صور
للانسانية الميتة والعالم المتحضر ، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الانسانية ،
واحياء الضمير البشري . يقول في بيت : « ان المؤمن اذا نادى الآفاق
بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون » . ويقول في قصيدة : « لست
أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح ، الذي يطلع على هذا العالم كل يوم ،
ولست أعلم سره ؛ ولكني أعلم أن السحر الذي يهتز له هذا العالم
المظلم ويولي به ليل الانسانية الحالك ، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق ان قوة المؤمن الحارقة للعادة ، المحيرة

للعقول المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه ، وبإندماجه واضمحلاله في إرادة الله . هنالك يتحول جارحة للقدرة الالهية ، وقوة قاهرة ، لاتصدها الجبال ، ولاتتقف في سبيلها البحار . يقول في قصيدة ، أنشأها في قرطبة : « ان يد المؤمن جارحة القدرة الالهية ، فهي غلبة ، حلاله للعقد والمشاكل ، فتاحة للابواب المقفلة ، لبة صناع حاذقة . ان المؤمن جسده من تراب وفطرته من نور ؛ عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غني عن العالمين » . ويقول على لسان القائد الاسلامي الكبير طارق ابن زياد فتح الاندلس ، وهو يدعو لاصحابه العرب بالنصر ويناجي ربه . يقول : « ان هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون ، الذين لا يعرفهم غيرك ، وقد أصبحوا اليوم يطعمون الى فتح العالم واخضاعه . اذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت ، واذا ركلوا برجلهم البحر انقلق . انكمشت الجبال وتقبضت بمهابتهم ؛ انهم عرفوك وأحبوك ، فزهدوا في العالم ، واستغنوا عن الدنيا . لا يطلبون إلا الشهادة في سبيلك ولا يهدفون مجيادهم الى الفتح والغنائم . لقد أفردت رعاة الابل ب نعمتك ، وميزتهم بين أقرانهم في الخبر والنظر ، وأذان السحر . لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب ، والتوجع للانسانية المظلومة ، وفي قلوب هؤلاء الجريحة وفي أكبادهم المتقدمة وجد العالم مأربه » . بل ان الشاعر يتقدم خطوة ، ويقول : « ماظنك بقوة ساعد المؤمن ! وهو بنظرته يقلب الاوضاع ، وبدعوته يرد القضاء » . والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله محمد اقبال ، فقد هزى المسلمون المؤمنون في عصرهم الاول من الجبال والبحار ، وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم من أشواك وعقبات . وقصص سعد بن ابي وقاص وخالد بن الوليد والمثنى بن الحارثه الشيباني وعقبة بن عامر ومحمد بن قاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد شاهدة على صدق ما قاله محمد اقبال .

المسلم لا ينحصر في الاوطان والشعوب :

ويرى محمد اقبال ان المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تنخطى حدود المكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية ، وكالانسانية العامة ، في مساحة زمانية شاسعة ، كمساحة التاريخ الاسلامي ، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الاسلامي . يقول في قصيدة قرطبة : « ان المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفعه المغور . ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرة في بحره المتلاطم . عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ . هو في كل عصر ساقى اهل الذوق ، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق . شرابه رحيق دائماً ، وسيفه ماض في كل معركة » . ويعتقد محمد اقبال ان العالم كله وطن للمسلم . يقول في بيت : « المسلم الرباني ليس بشرقى ولا غربى ، ليس وطنى دهلي ولا اصفهان ولا ممرقند ؛ انما وطنى العالم كله » . ويعتقد محمد اقبال ان المسلم يعتبر كل ملك الله وطناً له . يقول : « لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء ، أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجال من الجيش ، ولاموه على فعله ، وقالوا له : لقد قطعت بنا الجبال ، فكيف نرجع الى بلادنا . فوضع طارق يده على السيف ، وقال : انا لا أفكر في الرجوع ، وسنبقى هنا ، ونتخذة وطننا ؛ فان كل ما كان لله من أرض ، وبلاد وطن لنا . لا فرق في ذلك بين العجم والعرب ، والشرق والغرب » .

المسلم متخلق بأخلاق الله :

ويعتقد محمد اقبال ان المسلم يجمع بين المتناقضات من الاخلاق والصفات ؛ وماهى بمتناقضات ، ولكنهما ظلال صفات الله ، ومظاهر اخلاق الله . فهو في تسامحه ، ورحابة صدره ، وكثرة صفحه قد تخلق

يخلق « الغفار » ؛ وفي شدته في الدين ، وغضبه للحق ، وثورته على
 الباطل قد تخلق بخلق « القهار » ؛ وهو في نزاهته ، وعفته ، وطهارة
 ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » ؛ وفي صلابته اذا تصلب ، وشدة
 شكيمته اذا ابي ، وشدة بطشه اذا حارب تخلق بخلق « الجبار » ،
 ولا يكون المثل الكامل لدينه ، وصورة صادقة للاسلام ، حتى يجمع
 بين هذه الاخلاق المتنوعة ؛ فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب والرحمة ،
 والصلابة والمرونة ، والعفة والنزاهة ، ويكون في ذلك آية من آيات
 الله ، ومعجزة من معجزات الرسول . ثم يقول الشاعر : « ان المؤمن
 هو الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم ؛ به يُعلم رضا الله وسخطه ،
 وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره ، فهو حسن ، وما
 استقبحه فهو طئش ؛ وفي عزائمته تتجلى ارادات الله ، وهو القرآن
 الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه . ثم ان حياته متوافقة متشابهة
 كالطبيعة ، فالصبح يطلع كل يوم ، والليل يتبع النهار ، لا تخلف فيه ،
 ولا تناقض . وهو صاحب معان كثيرة ، ونعمة واحدة ، فهو
 كسورة الرحمن في القرآن ، تتجدد معانيه وتكرر فيه آية « فبأي
 آلاء ربكمها تسكذبون » . وقد صدق الشاعر ، فالمسلم لم يزل يُتحف
 كل عصر بعلومه وتوجيهاته ، وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ،
 ويضرب على وتر واحد ، ويكرر رسالة الانبياء ، ويقول لكل جيل :
 « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غير » فهو كالصبح جديد وقديم ،
 فهو في جدته ليس أجده منه ، وهو في قدمه ليس شيء أقدم منه ؛
 هو قديم لكنه يتجدد به العالم ، وتتجدد به الكائنات ، وتنتعش به
 القوى ، وتستيقظ به الاجسام والقلوب ، والعقول ؛ ثم جديد بنفسه ،
 تتجدد قواه ويتجدد نشاطه ، وتتفتح قريحته مع العصور ؛ علمه سيار ،
 وعقله مبتكر ، ونفسه طموح ، وهمته وثابة ، وهو كالطر كل قطرة

غير الاولى ، ولكنها قطرات مطر ، وكلها تحيي الارض ، وكلها تثبت
النبات ، وكلها تسقي المزارع والاشجار ، وكلها تفتح الازهار ، وكلها
تكون الانوار ، وهو معنى قول النبي ﷺ « أمتي كأنظر لا يدرى
أأوله خير أم آخره » .

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً :

ويقول محمد اقبال : « ان المسلم كالشمس اذا غربت في جهة ،
طلعت في جهة أخرى فلا تزال طالعة » . وقد صدق ، فإن الاسلام
لم ينكب في ناحية من نواحي العالم ، ولم يخسر في جانب دولة إلا
وقامت له دولة في جانب آخر ؛ ولم تقط له راية إلا وخفقت له
راية أخرى ؛ ولم يغب له نجم ، إلا وطلع له نجم آخر . لقد كانت
خسارة الاندلس الاسلامية كارثة كبيرة ، ومصاباً عظيماً ، ولكن
عوض الاسلام بها بدولة فتية من أعظم دول العالم ، هي دولة آل عثمان
في تركيا قامت في نفس القارة الاوربية ، وجشت على صدر الدول ،
والامم التي انتزعت الاندلس الاسلامية ، واجلت المسلمين من وطنهم
العربي الاسلامي . وكان سقوط غرناطة ، وأوج الدولة العثمانية ، في عهد
سليمان القانوني ، حادثين في عصر واحد . ونكب العالم الاسلامي ،
ونكبت بغداد بغارة التتار ، وانطمت معالم الحضارة الاسلامية ،
وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولكن في نفس هذه الفترة كانت
الدولة المسلمة في الهند تنسج وتزدهر . وأصيب العالم الاسلامي بهزات
عنيفة ، وقواصم مؤلة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الاوربيين ،
فقد اقتسمت الدول الاوربية تراث الدولة العثمانية كمال سائب ، واغتصت
ممتلكاتها في افريقيا ، وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق ، ولكن
تبع هذا كله اليقظة الاسلامية الهائلة ، والوعي السياسي القويم ، والطموح
الى الاستقلال والحرية ، والحركات الاسلامية المختلفة التي كان يجيش بها

العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه . ونكب المسلمون في العهد
الاخير نكبات عظيمة في الشرق الاقصى والاطلس ، وخسرت الدول
العربية فلسطين العربية الاسلامية ، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين
دولتان فتيتان في الشرق ، احدهما دولة باكستان ، والاخرى أندونيسيا .
وهكذا لم يزل التاريخ الاسلامي متأرجحاً بين الأسفل والاعلى ؛ فما
تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر ، كالارجوحة تماماً ، ولم
تتوار شمس في أفق إلا وبزغت في أفق آخر . وذلك لأن الاسلام
رسالة الله الاخيرة التي لا رسالة بعدها ، والمسلمون هم الامة الاخيرة ،
التي لا أمة بعدهم ؛ فاذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة ، واذا هلكوا فقد
غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .



برلمان ابليس

في ديوان محمد إقبال الأخير « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) قصيدة بديعة وصف فيها وصور جلسة برلمانية ؛ حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الابليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تتهدد مهمتهم في العالم وتخطط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم . وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « ابليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبعد نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه . وأدلى برأيه الحضيف المؤسس على الدراسة الواسعة العميقة . وهو يتلخص في : أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفؤ لنظامه ، وهي الشرارة التي تتحول فارقاً بسرعة ؛ فالمصلحة والرأي أن يركز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه وتقويته . وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ، ما يفيد الاطلاع عليه ، واليكم محضر الجلسة :

« ان الشياطين وزملاء ابليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شوري ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الابليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار

قد أحدثت بهم وهددت نظامهم ، وجللوا خطيئتها وتناذروا شرها ؛
فذكر أحدهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني :
لا يهولنك أمرها ، فإنها ليست الا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا
الملوكية اللباس الجمهوري ، إذ رأينا الانسان بدأ ينتبه ويفيق ،
ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لاتحمد عاقبتها ، فألهيناه
بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الامير والملك . ان الملوكية لاتتغير
في وجود شخص ترتكز فيه الملوكية ، وفرد يستبد بالسلطان ، إنما
الملوكية أن يعيش الانسان عيالا على غيره ، مستشفراً الى متاع غيره ،
سواء في ذلك الشعب والفرد ؛ أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهه
مشرق وضاح ، وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان .

فقال الآخر : لا بأس اذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا
يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدماء التي أثارها هذا اليهودي الذي
يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنه يحمل عند
أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ ، أنه أقام العالم وأقعده ، وأثار
العبيد على السادة ، حتى تزعزعت مباني الامارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة ان سحره
أوربا ، وان كانوا يريدونك المخلصين ، ولكن لم أعد أثق بفراستهم ،
ها هو السامري اليهودي الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم
الفارسي الاشتراكي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسر البغات
وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالملك ، ويدفعونهم بالراح (أعلام
أرض جعلت بطائحا) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ،
وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرها ، وها هي الارض ترجف بهـول
فتنة الغد . ياسيدي ! ان العالم الذي كنت نحكمه سينقض عليك ،
ويتقلب نظام العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : اني أملك زمام العالم ،
وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجباً ، اذا حرشتُ بين الامم
تهارشت نهارش الكلاب ، وافتوس بعضها بعضاً فعل الذئاب ؛ واذا
همستُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا
رشدهم ، وجُن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقة أن الحرق الذي
أحدثته الفطرة بين الإنسان والانسان لا يرفؤه المنطق المزدكي (يعني
الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ،
والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً ، فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح
كامنة في رمادها ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ،
وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ؛ لا يخفى على الحبير المتفرس أن
الاسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الامة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها
فُتنت بالمال ، وشغفت بجمعه وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خير
بأن ليل الشرق داج مكفر ، وأن علماء الاسلام وشيوخه ليست
عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات وبضيء لها العالم ؛ ولكني
أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقضى مضجعها ، وتوقف هذه
الامة ، وتوجهها الى شريعة محمد ﷺ ؛ إني أحذركم وأنذركم من دين
محمد ﷺ ؛ حامى الذمار ، حارس الذم والأعراض ، دين الكرامة
والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح
والجهاد ؛ يلغي كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار
استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على

صعلوك ، يزكي المال من كل دنس ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ،
ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم ، أمناء لله ، وكلاء
على الاموال ؛ وأي ثورة أعظم ، وأي انقلاب أشد خطراً مما أحدثه
هذا الدين في عالم الفكر والعمل ، يوم صرخ : أن الأرض لله ،
لا للملوك والسلطين .

فابذلوا جهنكم ، أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ،
ولئيهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الايمان بدينه ،
فخير لنا أن يظل مشغولاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب
الله والآيات . اضربوا على أذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر
طلاسـم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ؛ واجتهدوا أن يطول
ليه ويبطئ سحره . اشغلوه يا اخواني ! عن الجد والعمل ، حتى يخسر
الرهان في العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا
العالم ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره ، زهداً فيه واستخفافاً لحظـره .
يا ويلتنا ! يا شقوتنا ! لو انتهت هذه الأمة ، التي يعزم عليها دينها
أن تراقب العالم وتعهده^(١) .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلا نجح شياطين الإنس والجن في مهمتهم ؛ وكانت مؤامرة مبيتة
ضد الاسلام ، وخطـة منظمة ضد أجياله القادمة ؛ فأكبر ما اهتموا به
هو إطفاء الجمرـة الإيمانية ، التي لا تزال كامنة في الرماد ، وتجريد
المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية والعاطفة الاسلامية ،
التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحمل الشدائد والمكاره ، في

(١) ماذا خسر العالم باغـطاط المسلمين ص ٢٣٠ - ٢٣٣

سبيل الله ، والثورة على الباطل ؛ وقد أوصى بذلك إبليس أشياعه وجنده . يقول محمد اقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس الى تلاميذه السياسيين) : « إن المجاهد الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روح محمد ﷺ من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعاً من الفقر ، شديد الخوف من الموت ؛ وأشغلو العرب بالأفكار الغربية ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني يتمكنون بذلك من إجلاء الاسلام من الحجاز واليمن ؛ ان في الأفغان غيرة دينية ، وعلاجها أن يغفوا العالم الديني من جبالها وسهولها . »

وكان من أقرب الطرق للوصول الى هذا الهدف هو التعليم ، الذي يجرّد الشباب المسلم من الروح الديني والعواطف الاسلامية والعقلية الاسلامية ، وينشئ فيه طبيعة النفعية والأبيقورية ، وطبيعة التهام الحياة ، وانتهاب السرّات ، وتقديس المادة ورجالها ، وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشك في الدين ؛ لذلك يرى شاعر هندي آخر اسمه أكبر الإله آبادي : أن فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني اسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم الى طرق سافرة ، ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللعنات ؛ فكان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني اسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ؛ ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار ، وبعد النظر ، ودقة التفكير ، لاكتفى بتأسيس كلية لبني اسرائيل ، ينشئ الجيل الاسرائيلي الجديد كما يشاء ، ويسبك العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع إمكاناً لنشأة صاب مثقف ، يشعر الشعور الديني ، ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية ويتم بشيء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات والدراجات ؛ لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوء الأحداث ، ووصل الى غايته في سهولة ويسر ،

وهده وسلام ، وزيادة على ذلك اشتهر في الناس بلقب « حامي العلم ، و « مربّي الجيل » ، ونشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الديني في بلاد الاسلام ، وخذت جذوة الايمان ، وفقدت البطولة الاسلامية ، وروح الجهاد ، وفشت النفعية وجمعت المادية ، يقول الشاعر ، وقد ساح في كثير من البلاد الاسلامية والعربية : « لقد تجولت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيض بهم البلاد ؛ والمتشبهين بروح محمد ﷺ كالكبريت لاحمر والعنقاء المغرب » . ويقول في قصيدة قالها في فلسطين : « لا أرى في بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك سمو الفكري الذي كان يمتاز به العجم ، لا تزال دجلة والفرات متعطين الى بطل من ابطال الاسلام ، ولكني لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألم لذلك أشد الألم ، ويبكي دماً ؛ وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع يقول في أبيات : يا وارث التوحيد الاسلامي لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر ، والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوماً من الايام ، اذا نظرت الى أحد ، ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ؛ وقد أصبحت اليوم كسائر الناس لا تحمل روحاً ولا تجذب نفوساً . ويقول في موضع آخر : « ان السجدة التي كانت تهتز لها روح الارض لقد طال عهد المحراب بها ، واشتاق اليها المسجد ، كما تشتاق الارض الجديبة الحاشعة الى المطر ؛ لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الاذان الذي ارتعشت له الجبال بالامس » . ويقول في بيت : « لقد فقد المسلم

لوعة القلب ، وانطفأت نار الحياة فيه ، فأصبح ركاباً من تراب . . ويقول :
« لم أر في محيطك أيها المسلم لؤاثة الحياة ، قد بحثت عنها موجة موجة ،
وتفقدتها صدفة صدفة . . ويرى محمد اقبال أن مصدر هذا التدهور هو
القلب الذي خرب من الايمان وشعلة الحياة . يقول : « لقد فقد المسلمون
سورة الحب الصادق ، ونزف منهم دم الحياة ، فأصبحوا هيكلًا من عظام ،
لا روح فيه ولا دم ، الصفوف زائفة ، والقلوب مضطربة ، والسجدة
لا لذة فيها ، ذلك لأن القلب خال من الحنان . »

اليقظة الاسلامية :

هذا ولكن محمد اقبال يعتقد أن الصدمات السياسية التي أصيب بها
العالم الاسلامي أفضت مضجع المسلمين ، وأيقظتهم ، ودب فيهم ديب
الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الاسلام » : « اذا رأيت
النجوم شاحبة منكدة تحفق ، فاعلم أن الفجر قريب ، هاهي
الشمس قد ذر قرنًا من الأقب ، وولى الليل على أدبارها ، إن عاصفة
القرب قد أعادت المسلم الى الاسلام ، فإنما تتكون الآلىء في البحر
المتلاطم الهائج ، لقد دب ديب الحياة في الشرق ، وجرى الدم الفائر
في عروقه الميتة ، وذلك مر لا يقهمه ابن سيدنا والفارابي . إن المسلم
سبُح من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي . .
ويقول في بيت : « ان اقبال ليس يائساً من تربته الحقيمة ، فإنها اذا
سقيت ، أنت بمحاصل كبير . »

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد اقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ، ونثرت
كتنائها ، وقد شاخت وهومت ، وأينعت كالفاكهة وحانت قطافها ،
وأن العالم القديم ، الذي حوله مقامرو الغرب الى حانة الفساد

والمقاومة ، منهار قريباً ، والانسانية تتمخض بعالم جديد ، ويعتقد
محمد اقبال أن هذا العالم الجديد لا يُحسن تصميحه ، إلا من بنى
للانسانية البيت الحرام بالأمس ، وورث ابراهيم ومحمد ﷺ في قيادة
العالم وإرشاده ، فيُهيّب محمد اقبال بهذا المسلم النائم ، وينشده بالله أن
يقوم ، ويمسح النوم من عينيه ، فقد ظهر الفساد في البر والبحر ،
وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد اصلاحها ، وخربوا
العالم وملؤوه ظلاماً وظلمات ، وشروراً وويلات ؛ وليست هذه الأرض
إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً وأذن أن ترفع ويذكر
فيها اسمه ؛ ولكن الاوربيين قد حولوها الى خمار ، وبيت فسق
ودعارة ، ومكان نهب وغارة ؛ وقد آن لباني البيت الحرام وحامل
رسالة الاسلام أن يقوم ، وبصلح ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا
البيت الى قواعد ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالم
من جديد .

* * *

(١)

إلى الأمت العربية

يذكر أقبال الأمة العربية عهداً قديماً قبل البعثة ، حين كانت نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهايم التي لا هم لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مثلهم كمثل السيف المغلول يتواء للناسظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظبة فهو لا ينفع ولا يُنفع به ؛ فيقول الشاعر :

« ايها العرب ! قدمن الله عليكم ، اذ جعلكم مثل السيف الباز
أو أحد منه . وكنتم ، فيما قبل ، ترعون الابل في الصحراء ، تركبون
عليها ، وتظعنون بها ؛ ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ،
فضلا عن الابل ، فاصبحتم من مالكي أعنتها ؛ فلو أقسمت على الله
لأبركم . وهنالك دوت تكبيراتكم وصلواتكم ، وزمزمتم جلبة
حروبكم ومغازيكم ، بين الحائقين ؛ فارتج بها ما بين الشرق والغرب ،
فما أحسن تلك المغامرات ، وما أجمل تلك الغزوات »

وبعد ما يمدحهم الشاعر ، ويذكر حماسهم الإسلامية ، وغضبهم
المضرية في الله ورسوله ، ويُبدي فرحه ومروره ، يقف برهة ، ويملكه
الحزن ، والتألم ؛ يرى من نخود العرب ، بعد النشاط ، والاحجام

(١) كتب هذا المقال الاستاذ سعيد الندوي بتوجيه من المؤلف ، وقد تناولها بالحذف والإضافة ، ورأي ان يضمنها الى هذه المجموعة ، ليطلع القراء على رسالة أقبال الى العرب خاصة .

بعد الاقدام ، والفرقة بعد الوحدة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع
بعد القيادة . ويُقبل اليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفأ على هذا الخمود والجود ، أيها العرب ! ألا ترون الى الامم
الآخري ، كيف تقدمت وسبقت ؟ أما أنتم ، فما قدرتم قدر هذه
الصعراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحربة التي ورثتموها ، كنتم أمة
واحدة ، أمة الاسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ،
حزب الله ، فأصبحت أحزاباً ، لقد فرقتم جمعكم ، وهزقتم شملكم ،
وانقسمتم على أنفسكم . »

« اعلموا أيها السادة ! أن من ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد
الثقة بنفسه مات ومُحي من الوجود ؛ ومن فرق من معسكره ،
وانحاز الى صفوف الاعداء ، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان
والشقاء ، والطرود والجلاء ، ألا إنه لم يكن عدو مثل ما جنيتم أنتم على
أنفسكم ، ولم يسيء أحد الى أحد إساءتكم الى أممكم ؛ انكم آذيتم روح
رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فبني متألمة متوجعة ، شاكية مستغيثة . »

الشاعر عارف بكائند الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ،
وحبائل منصوبة ، وهو شديد المعرفة بهم ، قد عاش فيهم ودرسهم
وخبرهم ؛ فهو يتألم ، إذ يرى في الامة العربية من يُحسن الظن بهم ،
ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفض المشاكل ؛ فيرسل صيحته
وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إياكم والركون الى الافرنج ، والاعتماد
عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا الى الفتى الكامنة في مطاري ثيابهم .
ألا إنه لاحيلة لكم ولا وزر إلا ان تطردوهم عن منهلكم ، وتزدردوهم
عن حوضكم ، إن حكمة العرب قد أسرت الأمم ، وتركتهن سلبية

حزينة ، لا تملك شيئاً ، انما مزقت وحدة العرب ، واقتسمت تراثهم ،
ان العرب لما وقعوا في حبالهم ، تنكر لهم كل شيء ، ونسا عليهم
هذا الكون ، ولم يجدوا من يرفي لهم ويرفق بهم ، وضقت عليهم
الارض بما رحبت وضقت عليهم أنفسهم .

وبعد ما يفيض الشاعر في بيان شرور الافرنج ومكائدهم ، ويجذو
العرب من الانسياق اليهم والوقوع في شركهم ، يقبل الى تشجيع
العرب والتروفيه عنهم ، ويقول :

« ان الله قد رزقكم البصيرة النافذة ولا تزال فيكم الشرارة كامنة ،
فقوموا ايها العرب ! وردوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى ،
ان منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم
والاخلاص واليقين ، وما دامت ضميركم أمينة للسر الالهي ، فيأمن
البادية ! أنتم الحراس للدين ، وأمين الله في العالمين .

ان غريزتكم العربية الاسلامية ميزان للخير والشر ، وأنتم ورثة
الارض ، اذا تألق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين ، وطوي
بساطهم . لن تسعكم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ،
الذي يسع الآفاق . كونوا أمرع من العاصفة وأقوى من السيل ،
حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح .

« ليت شعري ! من خلفتكم في الحياة ؟ ! إن العصر الحاضر وليد
نشاطكم وكفاحكم ، وصنيع جهادكم ودعوتكم ؛ وما زلتُم ساداته
وولاته حتى أفلت زمامه منكم ، فتبناه الغرب واملكه ؛ ومن ذلك
اليوم فقد هذا العصر ، وهذا المجتمع الانساني ، شرفه وكرامته ، واصبح
تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدين .

فيارجل البادية ! ويا سيد الصحراء ! عُد الى قونك وعزتك ،

وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عنان التاريخ ، وقد قافلة البشرية الى
الغاية المثلى . »

وهنا نبذة أخرى من أبياته يشكو فيها الى روح رسول الله ﷺ
ضياح الأمة الاسلامية ، وانطفاء شعلة الحياة والايمان في نفوس العرب ،
ويشكو وحدته وغرفته في هذا المجتمع الاسلامي البارد الجامد ، ويناجيه
مناجاة من قام بين يديه ، وأذن له في الكلام . يقول :

« لقد تشتت شمل أمتك يا محمد ! يا رسول الله ، فإلى أين يلجأ
المسلم الحزين وإلى من يأري ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب
الماثج ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع وذلك القلق الذي عرفت
به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأين أجد من يساعدني على آلامي
وأحزاني ؟ وماذا يفعل حادي أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ،
ويطوي السفر البعيد ، في هذه الجبال والمهامه ، وقد ضل سبيله ،
وفقد زاده ، وانقطع عن الركب . بالله ! قل لي ماذا يصنع حامل
دعوتك ، المؤمن برسائلك ، وأين يجد زملاؤه ورفقته ؟ »

ويؤلم الشاعر ، أن يرى العرب لا يزالون ينظرون الى الأوروبيين
الانجليز والأمريكيين ، كأصدقاء مخلصين وأعوان منجدين ؛ يحاولون
لهم مشكلة اللاجئين ، ويردون اليهم أرض فلسطين ، مع أنهم لا يزالون
تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسي والاقتصادي والصحافي ، يقول :

« أنا أعلم جيداً يا أخواني العرب ! أن النار التي شغلت الزمان
وبهرت التاريخ ، لم تزل ولا تزال تشتعل في وجودكم . صدقوا
أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ولا في لندن ؛ لأنكم تعلمون
أن اليهود لا يزالون يتحكمون في سياسة أوروبا ، ولا يزالون يملكون
زمامها . ان الامم لا تذوق طعم الحرية والاستقلال حتى ترتب في
الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرف لذة الظهور . »

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلطف واعتذار :

« معذرة يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهندي ^(١) أن يخاطبكم ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا : أيها الكرام ! هندي ونصيحة للعرب ؟ انكم كنتم بامعشر العرب أسبق الامم الى معرفة حقيقة هذا الدين ، وانه لا يتم الاتصال بمحمد ﷺ إلا بالانقطاع عن « ابي لهب » ، وانه لا يصح الايمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت ، كذلك لا تتم الفكرة الاسلامية الا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية . ان العالم العربي ، أيها السادة ! لا يتكون ولا يظهر إلى الوجود بالتغور والحدود ، وانما يقوم على أساس هذا الدين الاسلامي وعلى الصلة بمحمد ﷺ » .

* * *

(١) لايفر بن عن البال ان محمد اقبال توفي قبل ولادة باكستان بشهر سنوات ، قبل ان تكون هناك جنسية باكستانية .

في جامع قرطبة

وقف محمد اقبال - في عام ١٩٣٢ م ، الذي زار فيه اسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود - في جامع قرطبة العظيم وقفه مؤمن شاعر ، وقفه خاشع أمام الايمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية ، التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد الغائية الجميلة لعقيدته وعزمه ؛ خاشع أمام العاطفة القوية ، والحب الطاهر ، الذي حمّله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفن الاسلامي العربي الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كل ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى ان هذا المسجد العظيم صورة للسلم في هذه الارض الخنونة ، تجلت فيه أخلاق المسلم وصفاته ؛ علو في الهمة ، واتساع في القلب ، وبساطة في المظهر ، وبراعة في النية ، وثبات على الحق ، وعلان للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمل والجلال ، والانفة والتواضع .

وتذكر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ؛ تذكر - والشيء بأشياء يذكر - بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوي في الجو ، وكانت أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعون ؛ ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الامة ، فليس له نظير في الأصوات

والمتافات والاعلانات والرسالات ؛ ذلك الاذان الذي كان يخشع له الكون ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ؛ ذلك الاذان الذي تنفس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ، وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا ؛ وما بين العالم اليوم ، وبين الصبح الصادق ، إلا هذا الأذان الصادق الذي ينادي به المؤمن الصادق . وتذكر هذا الاذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الاذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلاً إيماناً و يقيناً بأن الامة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة - التي كتب لها الخلود - لا تموت ولا تقف .

حرك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخي ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرك كل ذلك في إقبال الايمان والحنان ، والأحزان والأحزان ؛ وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » ، وقد كتبها في اسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد اقبال أن هذا العالم خاضع للفتاء ، وأن الآثار التي تخلفها الأجيال ، وأن البدائع الفنية التي تنتجها العبقريّة الانسانية بين حين وآخر كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات ، إلا ذلك الأثر ، الذي أكمله عبد مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأن عمله يستمد الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبه القوي الخالص^(١) - والحب هو أصل الحياة الذي حرم

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه اقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الايمان والحنان ، لاصلة لها بالفرام والعاطفة الجنسية .

الله عليه الموت - إن الدهر سريع ورفيق في سيره ، وهو تيار غنيف لا يقف في طريقه شيء ، والحب هو القوة الوحيدة التي تقفه لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ؛ ان الحب غير خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصور ليس لها اسم في لغتنا ؛ الحب هو الذي تجلّس في الرسائل السماوية وفي الاخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور والسرور ونشوة الخمر ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ؛ الحب قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الاحزاب ، فله أطرار وأدوار ؛ وهو رحالة لا يزال في سير وانتقل ، وحلّ وتحوّل ، وله منازل ومقامات يمر بها ويخلفها وراءه ؛ هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعر العظيم الى مسجد قرطبة ، ويقول له : «تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، وهذه العاطفة القوية ، التي كتّبت لها الخلود ، فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، ان البدائع الفنية اذا لم ترافقها العاطفة ولم يسقيها دم القلب - الحب - أصبحت مصنوعات سطحية من لون أو قرميد ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لا حياة فيها ولا روح ، ان المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحب ، ولا تقوم إلا الى على العاطفة والاخلاص ؛ الحب هو الذي يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفاق حنون للبشر ، فاذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصماء خفقت وعاشت ، واذا تجردت منه القلوب الانسانية جمدت وماتت .»

ويقول ، في عقيدة مؤمن ، ودلال شاعر محب : «إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الايمان والحنان ، ونحريك العاطفة وإثارة

الاحزان ، إن الانسان في تكوينه وخلقه قبضة من طين لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامة ومهراً ، فقد أشرق بنور ربه وحمل أمانة الله ، ان الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لها تلك اللوعة واللذة التي امتاز بها سجد الانسان ؟!

وهنا يتذكر محمد اقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكر أنه هندي النجار ، وأنه من احدى بيوتات « البراهمة » ، ^(١) ويتذكر أنه أمام أثر إسلامي عربي صميم قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! الى هذا الهندي - الذي نشأ بعيداً عن مركز الاسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام - كيف غمر قلبه الحب والحنان ، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والايان ! »

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالامة الاسلامية العظيمة ، التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ؛ فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما يحكم البنيان ، كثير الفروع والاعصان . ويلتفت الى المسجد ، فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلا في بادية العرب . ويرى شرفاته مشرقة بنور دهبها ، ومناراته العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ومهبطاً للرحمة الالهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « ان المسلم حي خالد ، لا يزول ولا ينقرض لانه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها ابراهيم وموسى ، وجاء بها النبيون ؛ وقد قضى

(١) أصله من صلاة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أصل جده الأعلى قبل مائتي سنة .

الله بخلودها وبقائها ، فكيف يزول وكيف تنقرض الامة ، التي حملت
هذه الامانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة !»

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الامة التي يمثلها هذا المسجد،
الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول :
« ان المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف افقه الثغور ، وقد
وسعت عاطفته ورسائله وملكته الشرق والغرب ؛ فليست دجلة في
العراق ، ودانوب في اوربا ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في
بحره الواسع ومحيطه الاعظم . إن له عصوراً في التاريخ لا يقضي منها
العجب ، وله حكايات ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة
اولاستغراب . هو الذي أمر العصر العتيق - العصر الجاهلي - بالرحيل
وافتح العصر الجديد . انه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان
الايمان والحنان ، لسانه ابن وعسل ، وسيفه علقم وحنظل ؛ يعيش في
ميدان الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتوحيد ؛ كلما اشتد به
الخطب ، ، وغضته الحرب التجأ الى إيمانه واعتماده على الله .

ويقبل على المسجد ، يتحدث إليه ويناجيه ويقول : « لقد كشفت
أيها المسجد العظيم ! عن سر المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت
ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقعة التي يمضي فيها ليله ؛
صورت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السامي ، ومسراته واشواقه ،
وتواضعه ودلاله .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموه وأخلاقه ، وسيوته
في العالم ، فيقول : ان يد المؤمن هي جارحة القدرة الالهية ، فهي
غلابة ، فتاحة ، قاهرة ، ناصرة . أصله من تراب ، وفطرته من نور ؛
عبد تخلق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين . آماله ومطامعه قليلة ، وأهدافه

ومطامحه رفيعة جليلة ؛ التي عليه الحب وكسبي المهابة والجمال . رفيق . رفيق في الحديث ، قوي نشيط في الكفاح ، نزيه بريء في السلم والحرب . إن إيمانه هو نقطة الدائرة ، التي يدور حولها العالم ، وكل ماعداه وهم وطمس ومجاز . انه الغاية التي يصل اليها العقل ، ولب لباب الايمان والحب ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها .

ويقبل مرة ثانية على المسجد ، فيخاطبه في اجلال وإكبار ، ويقول : « يا مثابة هواة الفن ! يا مقصد رواد الجمال ! وباجد الدين الاسلامي ! لقد سمعت بك أرض الاندلس ، وتقديست في أعين المسلمين . انك فريد في الفن والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن . أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب « الخلق العظيم » وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم ، على أن حكومة أهل القلوب خدمة وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً . هؤلاء العرب المسلمون ، الذين كانوا مربى الشرق والغرب ، وكانوا أصحاب عقول حسيمة ، وبصيرة نافذة ، يوم كانت اوربا تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ؛ والذين لانزال في الشعب الاسباني ، بفضل دمهم العربي ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمال شرقي . فتكثر فيهم عيون المهى ، ولانزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمين ورنات الحجاز . »

ثم يخاطب اسبانيا - الاندلس الاسلامي المقصوب - ، فيتغنى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أن أجواءها لم تسمع الأذان من قرون . ثم يذكر مامراً على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوق الى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الاسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الاصلاح الديني ، التي عفت الآثار القديمة والتقاليد

العتيقة في أوروبا ، فوجدت أوروبا المسيحية عصمة القسوس والبابوات ،
وتحرر الفكر الاوربي ، وتحركت سفينه في يسر وسهولة . وشهدت
فرنسا الثورة الكبيرة ، التي اضطرت لها أوروبا اضطراباً . وأصبح
الشعب الطلياني - الرومي - شاباً فتياً بلذة التجديد ^(١) . هكذا
الروح الاسلامية مضطربة قلقة ، تطلب انتفاضة جديدة ، ولكن متى
ذلك ؟ انه سر من أسرار الله ، لايفصح به اللسان . والعالم يتمخض
بمخاضات جسام ، فلا يستطيع أحد ان يتكهن بالمستقبل . ويخاطب
نهر قرطبة « الوادي الكبير » ، ويقول : ان على شاطئك ، أيا النهر
العزیز ! رجلاً يرى حلاًماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لايزال
في طيات الغيب ؛ يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ،
ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس . لو كشفت الغطاء عن وجه
هذا العالم الجديد ، وبجت ما في صدري من أفكار واسرار ، لشق ذلك
على أوروبا ، وفقدت رشدها وجئن جنونها .

ثم يعود مرة ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الامم والشعوب ،
والحاجة الى الثورة على الاوضاع الفاسدة ، ويقول : « كل حياة لا تجدد
فيها ولا ثورة أشبه بالموت ، ان الصراع هو حياة روح الامم . ان أمة
تحاسب عملها في كل زمان ، سيف بتار في يد القدر ، لايقاومه شيء
ولا يقف في وجهه شيء ^(٢) » .

ويختتم محمد اقبال قصيدته البديعة ، بكلمة حكيمة مأثورة ، مبنية
على تجرب واسعة ، ودراسات عميقة ، واستعراض واسع للأدب ،
والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني
روح النخوة ، والطموح ، والاعتداد بالنفس ، والقومية الرومية .
(٢) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية .

« ان كل مأثرة وكل إنتاج ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقص ،
وجدير بالفناء والزوال السريع ، وكل رنة أو نشيد لم يدُم له
القلب ، ولم تتألم له النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ،
ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الافكار » .

وهذا هو سر الخلود والبقاء للآداب والافكار والانتاج ، وهذا سر
نقاة الادب الجديد ، الذي يولد سريعاً ويموت سريعاً ، وهذا هو
سر التأثير والخلود في شعر اقبال وانتاجه .

فهل يسمع أداؤنا وشعراؤنا ؟

* * *

في أرض فلسطين

نحركت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الاسلامي المنعقد في القدس عام (١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م) ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ؛ وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبت من عين الشمس . ولم يزل الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ؛ والتقى جمال المكان بجمال الزمان . فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد اقبال ، الذي جاء من اوربا يمثل الهند الاسلامية في المؤتمر الاسلامي ، وبدأ يتمتع بهذا المنظر الحلاب ، ويخو بنظراته - التي يحتفظ بها الشعراء - في سبيل القلب ، فكل نظرة تضع في جمال الطبيعة ترجع الى القلب بالريح العظيم ، لأنها تشعن « بطاريتة » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد نهبا الجو ، وتوفرت الاسباب لإمتاع الشاعر العظيم ، وإثارة قريحته . فقد غطت الجوّ سحائب ذات الالوان ، واكتسى جبال فلسطين بطيلسان جميل ، زاهي اللون ، وهب النسيم عيلابليلا ، وهفت اوراق النخيل مصقولة مغسولة بأمطار الليل ، وأصبحت الرمال في نعومتها وصفاءها حريرا . ورأى الشاعر العظيم آثار نيوان انطفاة قريبا ، وأثافي ^(١) منشورة هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ،

(١) الأثافي الحبارة التي توضع عليها التدوير .

ضربت في هذا الصحراء بالأمس القريب ، تخبر بالقوافل التي أقامت ثم
ظفنت . وطاب المكان والزمان للشاعر ، وسمع كأث منادياً من
السماء يحثه على أن يلقي فيه عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته (١) .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه
الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر ، وهاجت
قريحته ، وتحرك الحب الدفين ؛ ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن
وتظهر الكوامن ، فيتذكر الانسان أحب شيء إليه فيحن إليه ، ويمثله ،
ويتفنى به . وقد حل « الاسلام » وحلت الأمة الاسلامية في قلبه محل
الحبيب الاثير ، وسيطر حبه على مشاعره ؛ فما كان من الشاعر المؤمن
إلا أنه تذكر « حبيب » وتغنى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه
عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً ، وبستاناً من النور خالياً
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثار في العواطف والحواطر ، ورأى ان ركب الحياة بطيء
لايساثره في افكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى ان العالم
عتيق مائب ، وفكره « الاسلامي » جديد فتى ؛ ورأى أن العالم
قد تجددت فيه أصنام وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم
« القومية » و « الوطنية » ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .
وقد تسربت هذه الوثنية الى العالم الاسلامي والعربي ؛ أفليس العالم في
حاجة الى ثورة ابراهيمية جديدة ، الى كاسر أصنام ، يدخل في هذا
المشكل فيجعل هذه الأصنام جذافاً ؟ .

وسرّح طرفه في العالم الاسلامي ، فوجد إفلاساً محزوناً في العقل

(١) الوصف للمكان والمنظر لاقبال ، نقلناه الى العربية في لفظنا .

والعاطفة . رأى العالم العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ؛ ورأى ان النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ، ويشور كالليت ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته . ورجا العالم الاسلامي ان يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجيء العالم بصراحته وشجاعته ؛ وتطلع العالم الى الحجاز - معقل الاسلام وعرين الأسود - فما كان منه إسعاف وإنقاذ ، ولم تتجدد معركة كربلاء ، على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الانسانية الى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الاسلامي الى بطله الجديد .

وهنا شعر محمد اقبال أن السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الاسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول : « لا بد أن يعيش العقل والعلم والقلب في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تُسند الدين وتغذيه عاطفة قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ؛ فاذا تجرد الدين عن العاطفة ، والحب أصبح مجموعة من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولأرواح ، ولاهامة فيها ولا قوة ؛ هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : « إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه الى الوجود . وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائثون وحار في الوصول اليها الباحثون » . ثم يستعرض العالم الاسلامي - وقد عرف شرقه وغربه ، وعربيته

وعجيبه - فيُحزنه قصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمة وقلة البضاعة^(١) في رجال الدين . ويرى أن المراكز العلمية والدينية - بمعناها الواسع - محرومة من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز ، التي تنزع العالم الاسلامي ، وتقود الأجيال البشرية . ويقول : «إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأبحاث التي مضت ، وأولئك الابطال الذين رحلوا ، وغابوا في غياهب الماضي . ان شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ويربّي الآمال في الصدور ؛ ولا عجب اذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقع في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي . ودعائي أن لا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد .

ثم يُقبل في شعره الى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرة حقيرة أو قطرة صغيرة ، في جنب هذه السعة التي لانهاية لها ، وكيف أشرف نوره على ذرة ، فكانت شمساً بازغة ؛ وكيف تجلى بالجلال ، فكان في الارض ملوك كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ؛ وكيف تجلى بالجمال ، فكان زهاد وعباد . زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ، ويقول : « ان الحنين اليك ، هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضيف على صلاتي ، وعبادتي حياة روحانية ؛ فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين ، لم أر أنها تقربني اليك . لقد وجد عندك العقل والعاطفة ، ما يعوزهما وما يحتاجان اليه ، فأصبح العقل - بعد

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما م يصدده .

توفيقك - يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركذ ،
واقصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ؛ وعرفت العاطفة
الحضور والاضطراب ، . ويناجي ربه ويقول : « ان الشمس لم تستطع
أن تدير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الارض بنور ربها ،
ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراسته العلمية ، الطويلة
الواسعة ، وأنه قد انضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ،
وليس كل من درس علم النخيل تمتع بالرطب . ويذكر الصراع بين
العقل والعاطفة ، والمصلحة والايان ؛ ذلك الصراع الذي لم يزل ، ولا
يزال قائماً حامياً . ويذكر معركة قامت ، في فجر التاريخ الاسلامي ،
بين المادة والايان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع
راية الايمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفاء ، ولكل معسكر^(١) .
فلينظر العالم العربي الى أي معسكر ينضم ؟ الى معسكر المادة
والمعدة ، أم الى معسكر الايمان والإخلاص ؟ والى أي راية ينضوي ؟
الى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم الى الراية
المحمدية التي تنف حولها أبو بكر وعمر .

(١) من « بال جبريل » ديوان شعر لأقبال . قصيدة « ذوق وشوق » .

في غزنين

سافر محمد اقبال ، على دعوة من ملك الافغان الشهيد نادر شاه ، عام ١٩٣٣ م الى افغانستان ، ومرّ في طريقه على غزنين ، عاصمة اسكندر الاسلام السلطان محمود الغزنوي ؛ وزار قبر الشاعر الحكيم السنائي الغزنوي ، الذي يعتبره محمد اقبال استاذاً له في الشعر والحكمة ، وصلاً بعد مولانا جلال الدين الرومي . وطاب له الوقت ، وقاضت قريحته بشعر إسلامي حكيم ؛ بثّ فيه أسواقه وآماله وآلامه ، ونظر فيه الى العالم المعاصر بعين حكيم شاعر ، ومؤمن ثائر . وسجّله تذكّراً لهذه الزيارة الممتعة التاريخية .

يشكو الشاعر العظيم ، في مستهل هذه القصيدة ، ضيق هذا الكون ، ويذكر أنه مع سعته التي يوصف بها لا يسع لوعته وطموحه ، ويلوم من يرى أن هذه الدنيا - برحابها الواسعة ، وصحاريها المترامية ، وممتعها الفاتنة - تسع فرداً واحداً رزقه الله علو الهمة ، وكبر النفس ، وحرارة الحب ، وينتهه بسوء التقدير ، وضيق التفكير . ويقول ، في صراحة وثقة : « إنّ من عرف نفسه وقيّمته نحرر من هذا العالم المادي ، ونمرد عليه ؛ وذلك سر التوحيد الذي لا يزال الناس في غفلة عنه . وإنّ من تفتحت بصيرته ، تجلّى له الجمال الالهي ، فرآه في هذا الكون » .

ويذكر هنا محمد اقبال انه لا صراع بين العلم والمعرفة والحب ،

وانما هو من تصوير المنتسبين الى العلم ، ومن ضعف تفكيرهم ؛ فقد رأوا في من ملكه الحب ، المنافسَ للعلم والدين ، وقسوا أو امرعوا في الحكم عليه ، ويقول : « إن الاستغناء عن المادة وأصحابها ، والحكومة ورجالها ، هو الحصن الحصين الذي يعتصم به أصحاب النفوس الكبيرة الزكية ، فلا سيليل اليهم ، ولا سلطان عليهم للملوك والاعنياء . ثم يقول ، في دلال واعتداد : « لا تحاول أيها الملك الرفيع أن تقلدني في لوعتي وسكري ، فثلك نعمة خصّ الله بها بني آدم ، وحسبك الذكر والتسبيح والطواف ، الذي جبل الله عليه الملائكة الكرام .

وهنا يقبل الشاعر الى العالم ، الذي يعيش فيه ، فينتقد الشرق والغرب ، ويقول : « لقد عرفتها وعشت فيها زماناً ، ولا ينبئك مثل خبير » . ثم يقص ما يعانين من أزمة ، وما يقاسيان من علة ؛ فيصورهما تصويراً صادقاً دقيقاً ، لا يستطيعه إلا من اختبر الشرق والغرب ، ويقول : « أما الشرق فقد توفر فيه الاستعداد ، ولكن يُعوزُه الموجة والقيادة الرشيدة ؛ وأما الغرب فقد أنجم بالقوة والوسائل ، ولكن حُرِمَ لذة الايمان ، وبرد اليقين » . ويتذكر العالم الاسلامي ، فيقول : « لقد انقرض منه أولئك العمالق الذين كانوا يتحدون الملوك ، والاباطرة بأنفتهم ، وكان في فقرهم وزهادتهم حتف للاستبداد » .

ويتذكر العالم العربي فتعزّنه الاوضاع الفاسدة هناك^(١) ؛ يحزنه عبث الملوك العرب ، وأمراهم ، وزعمائهم ببلادهم العزيزة ، والمقدسات الاسلامية ، ووقوعهم في شباك الاجانب مرة بعد مرة ، وانهاكهم في لذائهم وشهواتهم ، فتصدر منه كلمة قاسية لاذعة ، لم يُصدرها إلا الايمان العبيق ، والحمية الاسلامية ، فيقول : « ان هؤلاء الشيوخ والأمراء

(١) لا ينسى القارئ أن هذه القصيدة قيلت في عام ١٩٣٣ م .

لا يُستغرب منهم أن يبيعوا جُبة أبي ذر ، وكساء اويس القرني ،
ورداء فاطمة الزهراء^(١) ، وأعز المقدسات ، في كأس يحتسونها ، ولذة
ينتهبونها . ويقول : « إن نفوذ الاجانب في جزيرة العرب والاقطار
العربية ، وسيطرتهم السياسية على كثير من أجزائها ، حقيقة مؤلمة ،
يفزع لها كل مسلم ، ويعتبرها كزلزلة الساعة ورجفة القيامة ؛ وتمثل
بشطر بيت للحكيم السنائي - الذي وقف اقبال على قبره ونظم هذه
القصيدة - قاله عندما ملك التتار العالم الاسلامي من أقصاه الى
اقصاه ، وهددوا الحرمين الشريفين : لقد ملك التتار مركز الاسلام ،
والعرب - الذين كانت لهم الوصاية على العالم الاسلامي ، وهم مسؤولون
عنه - في نوم عميق لذيد » .

وينتقد الشاعر الحضارة العصرية ، التي كانت مصدرها أوروبا النائرة
الحائرة فيقول ، في تحليل عالم فيلسوف : إن الحياة الانسانية لا تستقيم ،
ولا تتزك إلا اذا جمعت بين النفي والاثبات ، بين الجحود بالزائف
الباطل ، وبين الايمان بالحق الثابت ؛ وتلك هي الكلمة الجامعة التي
أصبحت شعار الاسلام ، وعقيدته : لا اله الا الله .

فالشطر الأول - الذي هو النفي - إنكار لجميع الآلهة الباطلة ،
من أصنام ، ومادة ، وسلطان ؛ والشطر الثاني - الذي هو الإثبات - إقرار
للحق الذي لاحق غيره . وقد قطعت أوروبا الشوط الأول بشجاعة وقوة ،
وأنكرت الوسائط بين الله وبين العبد ؛ واثارت على الاحتكار الديني ،
الذي مثلته الكنيسة اللاتينية ، في القرون الوسطى ، وألحقت عليه
رجال الدين والكهنوت ؛ واثارت كذلك على الحكومات الجائرة المستبدة ،
فأحسننت ؛ ولكن خذلها التوفيق في قطع الشوط الثاني الاخير ، شوط

(١) كتابات عن المقدسات والاشياء الحبيبة الى نفوس المسلمين .

الإثبات ، والتقرير ، والايان الجازم ؛ والانسان لا يعيش على النفي فقط ، ولا يتكون المجتمع ، ولا تقوم الحضارة على النفي وحده ، فلذلك بقيت أوروبا - التي أخضعت العالم لعلمها ، وتنظيمها ، وسخرت الطبيعة لمقاصدها ومصالحها - حائرة مضطربة ، تائهة لا تملك الايمان ، ولا تملك العاطفة ، ولا تملك الغايات الصالحة ، وأصبحت مهددة في الزمن الاخير بالانهيار أو الانتحار . وهكذا لحص محمد اقبال تاريخ أوروبا المدني ، والفكري الطويل ، في عبارة وجيزة ، ومقطوعة شعرية ، هي عبارة دراسة طويلة وتفكير عميق .

والشاعر غير متشائم في نظراته وحكمه ، وهو غير يائس من مستقبل الشرق ، فيقول : « ان الشرق زاهر بالقوة والانتاج وتبدو من هذا المحيط الهادي ، موجة قوية تمز العالم ، وتزلزل أوكار الفساد والاستبداد » . ويرجع الشاعر فينمى على الاستعمار ، الذي يزرع تحت الشرق الاسلامي ، والذي أثر في تفكيره ومشاعره ، ففقد الشعور بالجمال ، وأصبح لا يوثق بآرائه واتجاهاته ، ويقول : « إن المحكوم الرقيق لا يوثق بأحكامه ، ولا يعتمد على استحسانه واستمجانه ، وإنما الميزان هو الرجل الحر ، والشعب الحر ، الذي يعيش حراً ، كريماً ، مستقلاً بتفكيره وميوله ؛ فان الاحرار ، هم وحدهم ، أصحاب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ؛ وان رجل الساعة هو ، الذي شق بهمه الطريق الى المستقبل ، ولم يقتنع بالحاضر » .

ويرجع الى تأثير الثقافة الاوربية في عقول الشباب الاسلامي - ومن أدرك به ، فقد نشأ في أحضانها - ، فيقول : « لقد نجح المربي الغربي ، الذي برع وفاق في صناعة الزجاج ، في مهمته ، حتى استطاع ان يضعف الامم التي عُرِفَت بالنخوة والشكينة والانفة ، فأصبحت شعوباً رخوة ناعمة . وأثر في الصخور والحجارة حتى أصبحت تسيل

رقة ، وفقدت صلابتها واستقامتها^(١) ؛ وبالعكس قد ملكتُ الاكسير ،
الذي يحول الزجاج الى حجارة صماء ، لا تؤثر فيها السيول الجارية
والمعاول الهدامة . لقد استطعتُ أن أقاوم الفراعنة ، الذين ما زالوا
مني بالرصاد ، بفضل اليد البيضاء^(٢) ، التي أخفياها في الكامي ؛ ولا
عجب ، فان الشرارة التي خلقت لتعرق غابة بأسرها ، لا يتغلب عليها
الحشيش والهشيم .

« ان الحب يبعث في الرجل الاعتماد بالنفس ، والاحتفاظ
بالكرامة ، ويمنع من الوقوف على أبواب الملوك ، والخضوع للمادة
والسلطان » .

وهنا تأخذه الهزة ، ويملكه حب النبي ﷺ ، والاعجاب بشخصيته
المعجزة ، ورسالته الخالدة - وهو الموضوع الذي لا يملك اقبال أمامه
نفسه - فيقول : « لا عجب اذا انقادت لي النجوم ، وخضعت لي
الأفلاك والكواكب ؛ فقد ربطت نفسي بركاب سيد عظيم ، لا يأفل
نجمه ، ولا يعثر جده ؛ ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل ، وامام
الكل ، محمد ﷺ ، الذي وطأت قدمه الحصباء ، فأصبحت إثمداً
يكنعل بها السعداء » .

وهنا يقف الشاعر ويقول : « يمنعني الحياء من الشاعر الحكيم
- السنائي الغزنوي - والأدب معه أن استرسل في الكلام ، وأطيل
الموضوع ، وإلا أمامي مجال واسع من المعاني ، والبحر زاخر
بالدرر والآلي » .

(١) يكنى به اقبال عن تأثير الحضارة الاوربية في اخلاق الشرفيين وما يتصلون به ،
بعد الثقافة الاوربية ، من الرقة والنوومة والقوة .
(٢) كناية عن الايمان والاستثناء عن المادة .

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد - القائد الشاب - بجيشه العربي المسلم على أرض اسبانيا ، مدخل أوروبا ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ^(١) » ... فيشير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صف طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافيء الجيش الإسباني في العدة والعدد ، ووصول الميرة والمدد ؛ فإن العدو في مركزه وبملكته ، والجيش الإسلامي غريب منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرة ولا مدد ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلب عليه . ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمة السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ؛ وفكر ، فلم ير حيلة إلا أن يضيف إلى هذا الجيش قوة لا تهزم ، وإرادة لا تغلب ؛ إنما القوة الإلهية ، وإنما الإرادة الربانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه . أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام . وقد قال الله : « وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » « وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْمَنصُورُونَ » .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلداً للرسول الأعظم ﷺ - قائد الكتيبة المؤمنة الاولى - إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يميني ، ويقول : « اللهم إني تهلك هذه العصابة لن تعبد » . فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخاطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد اقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسعره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك ، رجال غامضون مجهولون ، لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك . لقد منحتهم طموحاً وعلو همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك ، وينفذون فيها أمرك ، لا يعلمون غيرك . أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال . لقد ذاقوا لذة الايمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ؛ وذلك شأن الحب اذا خالطت بشاشته القلوب . ماجاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين الى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهم الوحيد . لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إن العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمتعه من التردى في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ، ونفوسهم بسخاء وشجاعة . إن العالم بحاجة الى دم عربي دكي فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليه إلا

الدم العربي الطاهر . ها ان الازهار والورود في الغابة في انتظار أن
تسمى بهذا الدم القاني ، فتوقل في حلتة . وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ،
ونريق دماننا في هذه الارض النائية ، لتغصب الانسانية بعد جذب
طويل ، وبحل الربيع بعد انتظار شاق ، طال أمده .

لقد أكرمتَ يارب ! رعاة الابل وسكان الدير - العرب - بنعم
فريدة ، لم يشركهم فيها أحد . لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان
جديد ، وشعار جديد ، هو : أذان الصبح . فقد أفلست الامم في
العلم الصحيح ، والايمان القوي ، والذوق الرفيع والدعوة الصارخة
السافرة الى التوحيد ، على حين غفلة من الناس ؛ أما العرب فقد
فاجأوا العالم بصحة علمهم ، وجدة ايمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودوي
أذانهم في السكون الخيم على العالم ، والظلام الحالك . لقد كانت الحياة
فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة ، وقد وجدتها من جديد
في قلوبهم الفائضة بالايمان والحنان . انهم لا ينظرون الى الموت كنهاية
لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الانسانية ؛ انهم يرون فيه فتحاً جديداً ،
وعيشاً جديداً . أعد يارب ! الى هذه الأمة المؤمنة ، الحية الايمانية
والغضبة المؤمنة ، التي تجلّت في دعاء نوح ، فقال : ربّ لا تدرك
على الأرض من الكافرين دياراً ، حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر
والفساد . واخلق فيها المطامع البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ،
واقذف في قلوب الناس رعباً وهيبتها ، حتى تعمل نظراتها عمل السيوف^(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق - القائد المؤمن المخلص - وانتصر
الجيش الاسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العدد والعدد ،

(١) من « بال جبريل » ، ديوانه .

واصبحت اسبانيا النصرانية الأوربية الاندلس الاسلامي العربي . وقامت
دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قرونا ولم تضعف ولم تزل ، إلا
بفقدان الروح التي تضلّع بها طارق واصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي
جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الايمان الذي امتاز به طارق
بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانهاكهم في الشهوات والحروب
الداخلية ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ
اللَّهِ تَبْدِيلًا .



حديث الربيع

خيم سلطان الربيع ، وانتشرت جنوده في رحاب الصحراء ،
وأودية الجبال وقامت دولة الزهور والرياحين ، ودبت الحياة الى
الصخرات والحجارة حتى كادت تنطق وتنطق . وغشيت العالم سحابة
من المرح والسرور ، حتى أبت الطيور ان تستقر في أوكارها مرحاً .
وانطلقت عيون الجبال تمس وتنساب كالحياء في الصعيد ، تدب
أحياناً ، وتجري برفق وهدوء ، وتتدفق أخرى وتجري بقوة وسرعة ،
وإذا حبسها حابس ، فلقت الصخور والمضبات ، وشقت طريقها الى
الامام ، وإنها تجريها الدائم تغني نشيد الحياة وتردد حقائقها .^(١)

بصني محمد اقبال - الشاعر الحكيم - الى هذا النشيد ، ويرى
كيف تتلون هذه العين التي تدفقت من بعض الجبال ، وكيف تنعطف
وتعرج ، وتتداول الرفق والقوة ، وهي مع ذلك كله لاتفقد حقيقتها
وحياتها ؛ منسلسلة في الفيضان ، مستمرة في الجريان . ويرى فيها صورة
للحياة ، التي تجري باستمرار ، وتظهر في أدوار واطوار ، وتلتزم
الحركة والتطور ، فالها من قرار . ويستلهم الشاعر الحكيم ، من مناظر
الربيع التي فتقت قريحته ، وأهاجت شاعريته ، ومن الدروس التي
ياقها نهر الحياة الفياض ، معاني حكيمة ، يهديها الى الجليل الاسلامي

(١) مأخوذة من نفس قصيدة اقبال .

الجديد ، الذي هو مناط آماله ، وبهينه لاستقبال العصر الجديد الذي ظهرت تباشيره .

ويقول : لقد تغير العصر وأوضاعه ، وتكشفت اسرار أوروبا ، وما كانت تضره ، وتبته للشرق ، حتى أصبح فلاسفتها ودهائمتها وزعمائها في حيرة من أمرهم . لقد افلست السياسة الاوربية ، وأخفقت أساليبها القديمة ، وأصبح العالم يفيض الامارة والملوكية ، وثار المجتمع على الافراد والسلطين . لقد انتهى دور الرأسمالية والثراء الفاحش وانتهت هذه المسرحية التي مثلها الملوك وابطال الف ليلة . لقد تحطت اليقظة العالمية ، الى شعوب معروفة بالكل ، والسبات العميق ؛ وتدفقت عيون جبال همالايا ، وتهايت جبال سينا ، وفارات لإشراق جديد .

ويقبل كعادته الى امته الاسلامية الحبيبة ، ويستعرض العالم الاسلامي ، فيقول : « ان المسلم ، وان كان لا يزال متحمساً في التوحيد ، فقلبه لم يتجرد بعد من نفوذ الوثنية وشعائرها ، ان الحضارة والتصوف والديانة وعلم التوحيد ، لا يزال كل ذلك خاضعاً للنفوذ العجبي ، لقد طغت الحرافات على الحقيقة ، وتاهت الامة في الاخبار . إن الخطيب ^(١) يسهر المجتمع بكلامه وخطابته ، ولكنه جاف قليل الحظ من الحنان ، ولذة الشوق ؛ ان كلامه مؤسس على المنطق والقواعد ، ومشحون بالمفردات الغريبة ، والتراكيب البديعة ؛ ولكنه لا يأمر القلوب ، ولا ينفذ الى أعماقها . أما « الصوفي » الذي تجرد لخدمة الحق ، والحب لخلق الله ، وكان يلتهب غيرة وحمية للدين ، فقد ابتلعه الفلسفة العجبية ، و « الشكليات الصوفية » . ^(٢) لقد انطفأت

(١) يعني به رجال الدين الذين يخطبون ويؤلفون في المقاصد الدينية ويعطون الناس .

(٢) إشارة الى تطور التصوف الاسلامي ، وانعطافه في العصر الأخير .

شعلة الحب والحنان في المسلم ، فاصبح ركاً من رماد ، لاشعة فيه
ولا حياة .

وهناك يدعو محمد اقبال ربّه مخلصاً أن يعيد الى هذه الامة
الحياة ، ويعيد اليها عهدا الاسلامي الزاهر الاول ؛ ويدعو أن يلب
في نفسه العاطفة ، ويشعل شعلة الحب فيستمد منها قوة ، وخفة روح
وسمو لا يحظى به الا « المحبون المؤمنون » ؛ فيطير بجناح الحب ويصل
الى مالا يصل اليه الثقلاء الماديون ويدعو ان يخلق الله في هذه الامة
الهامدة الحامدة قلب عليّ ولوعة ابي بكر - رضي الله عنها - وأن
يبعث في صدورهم الآمال التي ماتت .

وهناك تأخذ الشاعر أريجية الشجر والايمان ، فيقول : « حيا الله
نجوم سمواتك ، التي تلمع ليلا ، وعُباد ارضك ، الذين يحيون الليالي
عبادة وتلاوة ، أحبي قلوب الشباب الاسلامي ، واجعلها خفاقة حساسة
متوجعة ، وارزقهم يارب ! حيي ، وعاطفتي ، وفراستي وحكمتي .

لقد وقعت سفيني في لجة ، وأحيط بها من كل جانب ، فأخرجها
من هذه اللجة ؛ وقد وقفت ، فاجعلها سائرة جارية ، تصارع الامواج
واشرح لي كيف تموت الحياة ، وتفقد حيويتها ، فانه لا يخفى عليك
شيء من هذا الكون .

ليس عندي يارب الا هذه الآلام التي افاقمها ، والتي حرمت عليّ
النوم ، وسلطت عليّ الارق ، هذه المطامع البعيدة ، والآمال الواسعة
التي اربها ، هذه الانات التي أرسلها ، في ظلام الليل ؛ وهذه الساعات
الحلوة ، التي أخلو فيها ، وأناجيك ؛ وهذه المجالس التي أبت فيها
أسواق ، وأستنزف فيها آمالي . إن فطرتني التي فطرتني عليها ، مرآة
ينعكس فيها اتجاهات العصر ، ومرتع يرتع فيه غزلان الافكار

والخواطر (١) . وان قلبي ساحة ، يتجدد فيها معارك وحروب ، بين جيوش الظن والتخمين ، وبين ثبات العقيدة واليقين . (٢) هذه هي ثروتي ، التي اعتز بها في فقري ، وادعوك يارب ! ان تقسمها في الشباب الاسلامي ، وغلكهم إياها ، فتصادف محلها ، وتصل الى من هو أحق بها ، وأهلها .

وبعد ان يشرح فلسفة الحياة ، ووحدتها في الكثرة ، وتطورها وظهورها في مظاهر شتى ، وحرصها على الحركة والتغير ، وفرارها من الهدوء والجود ، وقوتها وسرعتها ؛ كل ذلك في عمق ودقة ، وهي قطعة فلسفة أدبية ، تستحق الدراسة والعناية من تلاميذ الفلسفة وعلمائها ورواد الادب والشعر يهيب بالشباب الاسلامي ويقول له ، وهو يعرف اندفاعه الى المادة والشهوات ، وغرامه الشديد بالوظائف والمرقيات :

« إن الرزق الذي يفقد الابي الكريم كرامته ، ويرزاه في حريته وشرفه سم زعاف ؛ ان القوت المقبول ، هو الذي يظل معه الرجل موفر الكرامة ، مرفوع الهامة . ازهد في ابهة السلاطين ، واعرف نفسك ، واحتفظ بقيمتها وكرامتها ، وان السجدة التي هي جديرة بالاهتمام هي السجدة التي تحرم عليك كل سجدة لغير الله . »

ثم يحثه على مقامرات جديدة ، وفتوح جديدة ، وتقدم دائم ، وطروح دائم ، حتى تنكشف له عوامل جديدة ، لم يحلم بها علماء الطبيعة ، ولم تحدث عنها العلوم الكونية .

(١) يشير الى ما ينسج له من افكار جديدة ونظريات .

(٢) يشير الى الصراع النفسي بين الفلسفة والدين والمحافظة الذي لم يزل الشاعر الحكيم يعالجه في حياته .

« ان هذا الكون ، الذي يتركب من لون وصوت ، والذي هو خاضع لثاموس الموت ، والذي تسرح فيه العين وتمتع فيه الاذن ، وليست الحياة فيه - عند اكثر الناس - الا الاكل والشرب ، ليس هذا الكون الفسيح الجميل ، هو المرحلة الاولى لمن عرف قيمته ؛ انه ليس وكرك الذي تستريح فيه ، والغاية التي تنتهي اليها . ليست هذه الارض ، التي مادتها التراب ، مصدر روحك المتوقدة الوثابة ، وعاطفتك الملتزمة ؛ انت مادة الكون ، وليس الكون مادتك . كن في تقدم دائم ، ورحلة دائمة ، وحطم هذا الجبل الاصم ، الذي يعترض في طريقك ، وتمرد على هذا الزمان والمكان ، وتحرر من قيودهما ، وانطلق من حدودهما ؛ فان المؤمن اذا عرف قيمة نفسه اقتنص هذا العالم ، واقتنص هذه الارض والسما في بعض ما يقتنص » .

« ان هنالك عوالم وأكوانا ، لم تقع عليها عين بعد ؛ فان ضمير الوجود لم يفرغ جميته ، ولا يزال يأتي بمجديد . وان هذه العوالم متشوقة لهجومك ، وغارتك ، وزحفك ؛ متشوقة لأبكار افكارك وبدائع اعمالك . ان هذا العالم يدور دورته ، لتتكشف عليك نفسك وحقيقتك . أنت فاتح هذا العالم ، الذي يحتوي على خير وشر ؛ ويعجز البيان عن وصفك ، ويعجز الملائكة عن مرافقتك وعن غاياتك » .

نياحة أبي جهيل

زادت روح عمرو بن هشام - زعيم الجاهلية والنخوة العربية - مكة ،
وقد أصبحت بلد الاسلام والتوحيد . وطهر بيت الله للطائفين والقائمين
والركع والسجود . وحرمت عبادة الاصنام ، والاوثان الجاهلية ؛ فلا
اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أصف ، ولا
نائلة . (١) وقام المؤذن على شرفات الحرم ، ينادي ، بأعلى صوته ،
خمس مرات : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .
وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . وأصبح الناس يعتقدون
أنهم من آدم ، وآدم من تراب ؛ فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا
لعجمي على عربي ، إلا بالتقوى . وسمع الناس يتلون : « يا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْثَرَكُمْ مَكْرُمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَاكُمْ » .

وأصغى الى الناس ، في غدوم ورواحهم ؛ فلم يسمهم يقتفرون
ببلد أو نسب ، ووطن أو شعب . وطاف في الناس ، فلم ير أحداً
يعتبر أحداً بأمه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ،
ويتطاول بعربيته أو قرشيته . وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضة

(١) كان أكثرها اصنام قريش ، والتي كانت لقبورها ، كانت قريش تعظمها . راجع ابن

هشام وابن الكلبي .

بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ؛ ولا مساجلة في مآثر الجاهلية وأيام العرب . ورأى الناس بالعكس يرجعون الى عبد اسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفون حوله ، ويصدرون عن رأيه .

ودقق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم فلم ير غرقاً جاهلياً ، أو نزعة عربية ، أو نغمة قومية ، يتعلق بها سيد بني مخزوم ، ويقرّ عيناً . ورأى ان الحياة القديمة ، قد نسخت وأبطلت ، وولد مجتمع جديد ، قام على أساس من العقيدة والخلق والفضيلة والتقوى . وتغيرت الموازين والقيم ، وتغيرت عقول الناس ونفوسهم . وسُمع ينشد في حزن واستعجاب :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كُنت أعرف

لقد أشكلت الامور على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابن البلد ، وسيد من ساداتها ؛ فلولا البيت ، ولولا الخطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المسكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحن فيه ضعفاء المسلمين ، لأنكر مكة ، وأنكر الوادي . ورأى أنه قد ضل الطريق .

لقد كان يرى في الدين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ ، الخطر والضرر على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصية القرشية ، والنظام الجاهلي الذي يقوم على النصب ، والوطن ، وتفضيل الدم والعرق ؛ ويرى العالم كله في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكة ؛ ولا يعني بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كله في العرب ؛ فغيرهم عجم وعاج ، لا يستحقون مدحاً ولا يستحقون رحمة ، ولا يستحقون عدلاً . لقد كان يرى كل ذلك ، ويتوقعه .

وكان من أشد الناس حماسة في الدفاع عن الجاهلية ، واصدق الناس
فراسة في معرفة غايات الاسلام ؛ ولكنه على بعد نظره وذكائه ، لم
يكن يعرف أن الامر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأن الاسلام يؤثر
في الناس هذا التأثير ، وأن الجاهلية تطرد من عاصمتها ، ومهدا هذا
الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحه ، ورؤي
متعلقاً باستار الكعبة يستغيت على محمد ﷺ ، وينوح ، ويقول :
« ان قلوبنا - معشر الجاهلين - قروح وجروح ، تسيل دماً ،
ما صنع محمد ؛ فقد أطفأ نور الكعبة ، وحط من مكانتها وقدرها ،
لقد نعى قيصر وكسرى ، وقنبأ بزوال الملوك والسلطين ، ونادى
بأعلى صوته : « إن الحكم لإلا الله » ، و « إن الأرض لله يورثها من
يشاء » ، واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به ، وبدينه الجديد .
ساحر يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ؛ وهل كفر أعظم من
قوله « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ،
وعبدوها في جميع الأعصار والامصار ؟! إنه طوى بساط دين الآباء ،
وفعل بآلتها الأفاعيل ، لقد جعل اللات ومناة جذاذاً بضرباته الموجهة ؛
فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثار الآلهة . يا عجباً ! لقد جرّد القلوب
عن معبود مشهود ، يرى ويلبس^(١) ، وربطها بمعبود غير مشهود ،
لا يرى ولا يلبس ؛ حتى كان هذا الايمان بالغيب أقوى ، وأعمق من
الايمان بالمشهود الموجود . هل لهذا الايمان أساس ؟ وهل لما لا يرى
وجود ؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجود لغائب ؟
هل يجد الانسان لذة وحلاوة في ركوع وسجود أمام غائب ؟ .

(١) يعني به الاصنام من الحجارة وغيرها .

ان دينه حنف الوطنية ، والقومية ؛ انه من قريش ، ولكنه
لا يفضل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس
مع مولاه على مائدة واحدة ، ويأكل معه . أسفاً ! انه لم يعرف
قدر العرب الاحرار ، وأكرم العلوج ، والعبيد السود ، لقد اختلط
الاحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم بالثيم ، والجميل بالدهيم ،
وذلل العرب ، وذلل بنو قصي .

اننا لا نشك في أن هذه المؤاخاة ، التي يبحث عليها محمد كثيراً ،
مبدأ عجمي . وقد تحقق لدينا أن سلمان مزدكي ، وان ابن عبد الله
خُدع به ، وجر البلاء والشقاء على الأمة العربية . لقد جهل هذا الفتي
الهاشمي قيمته ، وشرفه ؛ لقد أعمته هذه الصلاة التي يصلحها ، هل
لعجمي أصل عدناني ، وهل لأعجمي نطق عربي ، ولهجة مصرية ؟ .
عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام ، الذي يسميه
محمد وحياً ، بكلامكم البليغ الساحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحبر الاسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ؛
ولماذا لا تقوم يا هُبَل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء
الصباة . أغر عليهم ، وعكّر عليهم الحياة ؛ أرسل عليهم ريحاً ، صرصراً
عانية ، تجعلهم أعجاز نخل خاوية . يا مناة ! يا أيها اللات ! بالله !
لا ترحلا من ديارنا ؛ وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ،
وان كان لابد من الرحيل ، فلا تعجلا ، وامهلانا أياماً تتمتع بكما^(١) .

(١) « جاويدنامه » لشاعر الاسلام محمد اقبال .

رجعية الجاهلية

مرّ شاعر الاسلام - في بعض زياراته الروحية وسياحاته الفكرية -
بوادٍ ، اجتمعت فيه الآلهة القديمة ، التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحتت
أصنامها ، وثابثتها ؛ وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها السدنة
والكهان ، وتغنى بها الشعراء والادباء . وكان يجمع الآلهة القديمة من
شعوب مختلفة ، وبلاد مختلفة ، وعصور مختلفة ؛ فهذا إله المصريين
القدماء ، وهذا رب التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهة عرب
الجاهلية ، وأولئك آلهة وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك
رب الفراق ، وهذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا
زوج المشتري .

ثم انهم أشكال والوان ، فهذا قد ملل السيف بيده ، وهذا تقلّد
حية ولواها حول عنقه ؛ وكلهم وجيلون مشفقون من الوحي المحمدي ،
الذي أحدث الثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ، وولد العالم
الجديد ، القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ؛ وكلهم
ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارة مفاجئة سرّ بها الآلهة ، وتقاء لوا بها ، وكان

« مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحب بالانسان القادم وأخبر زملاءه به : ابشروا يا اخواني ! فان إنساناً فرّ من الله ، وثار على الأديان السماوية ومراكزها ، وأقبل الى العهد الماضي ، ليتوسع في العلم والنظر ؛ وجاء يتمتع بالآثار العتيقة ، ويتحدث عن مجدنا ، إنها بارقة أمل ، لاحت بعد مدة ، ونفخة هبت من أرض حكمتها طويلاً ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعث - إله الفينيقيين والكنعانيين القديم - أول من اهتز لهذه الزيارة ، فانشأ يغني في طرب ومرح ويقول : « إن الانسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ؛ فليست هذه العقائد ، التي يدين بها الانسان ، إلا خواطر تسنح له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ؛ إنه لا يرتاح إلا الى المحسوس المشهود .

حيا الله الافرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، والذين أعادوا لنا الحياة وبعثونا من مراقدنا . فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ، التي أتاحتها لنا الدهاة الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل ابراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذته .

لأنهم صحبوا الغربيين مدة من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ، وضيّعوا ذلك الدين الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بعث فيهم الايمان واليقين .

إن الرجل المؤمن الحر الذي لم يكن يعرف الحدود والجهات ، ولا يعبد غير الإله الواحد الذي خلق السموات والأرض ، أصبح يؤمن بالوطن ، ويقده ، ويعبده ويقا تل في سبيله ، ويكفر بالله ، ويمجره ، ويتناساه .

لقد خضع المسلمون لنفوذ الغربيين الماديين ومجدهم ، وأصبح
شيوخهم الكبار وعلماءهم العظام يتقلدون شعارهم ، ويقتفون آثارهم ؛
فلنستبشر ، ولننتهز هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشباب ، وحق لنا ان نظرب ؛ فقد انهزم الدين ،
وانتصرت الوطنية والجنسية . ان المصباح الذي أثاره محمد ، تألب عليه
مائة « ابي لب » يطفئونه . اننا لا نزال نسمع صوت « لا إله إلا
الله » ، ولكنه صوت يصدر عن الشفتين ولا يصدر عن القلب ،
وكل ما غاب عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحر الغرب دولة إله الشر والظلمة ، وشبابه ،
وأصبح الدين الالهي مهدداً ؛ فطوبى لنا ولاخواننا الذين قطعوا الرجاء
من الحياة ، واعتكفوا في الخلوات والمغارات .

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرف المطلق ، والحرية الكاملة في
حياتهم ، لم ننتقلهم بعبادة وطاعة ، وإنما طلبنا منهم ركعة لا سجود
فيها . وقد أثرت فيهم العاطفة الدينية بالاناشيد والاغاني ، فلم تكن
صلاتهم الا مسكاً وتصدية ، ونعمة وأغنية ، وأي لذة في صلاة
لا غناء فيها ولا موسيقى !

ان الناس لا بد يفضلون عبادة طاغوت مشهود ، على عبادة إله
غائب ، ورب لا يرى بالابصار .^(١)

(١) من ديوان « جاويد نامه » .

ساعة مع سيد جمال الدين الأفعاني

خرج الدكتور محمد اقبال مع شيخه ومريه الروحي والفكري الشيخ جلال الدين الرومي - في سياحة روحية فكرية ، ومرّ في جولاته - الخيالية - بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصيات ماضية ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر ، والرجالات ، وتحدث معهم في مسائل كثيرة (١) .

ومر في رحلته بمنزل بكر ، لم يطأه آدمي بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدنيا بسهولها وجبالها ، وميادينها وازهارها ، وعاش منذ آلاف من السنين في عزلة عن المدينة والصناعة الانسانية . وأعجب الشاعر جمال الطبيعة ورقة الهواء ، وخيرير الماء في هدوء الصحراء . وأقبل الى شيخه الرومي ، فقال وقد قرع أذنه صوت عذب رقيق : مالي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر انسان ؟ فهل أنا واهم ، أم حالم ؟

قال الرومي : إنه منزل الصلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسب قريب ؟ فقد قضى فيه أبونا آدم يوماً أو يومين ، لما هبط من الجنة . قد شهد هذا المكان زفراته وأناته في السحر ، وبلت دمّوعه التراب . يزوره أصحاب المقامات الرفيعة كفضيل وأبي سعيد ، والعارفون الكبار

(١) وفي ديوانه « جاويد نامه » قصة هذه الرحلة .

كجنيد وأبي يزيد ؛ فلتنقم ولنسرع لنذكر الصلاة في هذه البقعة المباركة ، وننال لذة الروح ، ونعمة الخشوع التي حرمانها في العالم المادي .

ونمضا من مكانها مسرعين فوجدا رجلين يصليان ، أحدهما أفغاني والآخر من الأتراك . ونظر فيها ، فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغاني يصلي خلفه الأمير سعيد حلیم باشا . فقال الرومي : ان الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضل منها ، وقد حلا كثيرا من عقدي والغاوي . أما الامام السيد جمال الدين ، فقد نفخ في الشرق الناعس روح النشاط ، ودبت بدعوته الثائرة الحياة في الاموات والجمادات ؛ وأما الزعيم سعيد حلیم فقد جمع بين القلب الجريح الدامي ، والفكر الخلق السامي ، والروح الفلقة والعقل الكبير المستنير . إن ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فخلق هدوء المسكات والزمان ، وشخصية الامام ، وجمال القرآن ، جوا خاشعا رهيبا ، رق فيه القلب وفاض فيه العين ؛ وكانت قراءة لو سمعها ابراهيم الخليل لأعجب بها ، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليها ؛ وكانت قراءة تخلق النفوس وتذيب القلوب ، وتعلمو بها صيحة التكمير والتهليل في القبور ؛ وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتنضح بها معاني أم الكتاب .

وندع محمد اقبال يحكي قصته ، قال : « وفت بعد الصلاة ، وقبلت يده في أدب ومحبة ، وقد قدمني أستاذنا الرومي الى السيد ، وقال : إنه جوال جواب في الآفاق ، لا يستقر في مكان ، ويحمل في قلبه عالما من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ولم يخضع لأحد ، فيعيش حرا طليقا ، .

وأقبل عليّ السيد جمال الدين ، فقال : حدثني يا عزيزي ! عن

العالم ، الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ،
وينظرون بنور الله .

قلت : ياسيدي ! لقد رأيت في ضمير الأمة التي خلقت لتسخير
العالم معركة حامية ، وصراعاً دامياً بين الدين والوطن . لقد ضعف
الايمان في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الامل من سيطرة
الدين وسيادته ، فلجأت الى الوطنية والقومية . اصبح الاتراك والايروانيون
سكارى بصهاء اوربا ونشوتها ، وأصبحوا فريسة كيدها ودهائها .
أصبح الشرق خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشيوعية بهجة
الدين وبهاء الملة .

سمع الافغاني كل ذلك في صبر وأناة ، وفي تألم وحزن ، ثم انفجر
قائلاً : ان الباقعة الاوربي هو الذي علّم أهل الدين ، الوطنية
والقومية ؛ أما هو فلا يزال يبحث عن مركز لجمع الشعوب والاطوان ،
ولكنه بذر في الشرق بذور الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصر
والشام والعراق . فتحرر أمة المسلم الشرقي ! من قيود الوطنية والقومية ،
وكن « عالمياً آفاقياً » يعتبر كل بلد وطنه ، وكل أرض أرضه . ان
كنت تميز بين « الجميل » و « القبيح » ، فلا تربط نفسك وقلبك
بالتراب ، والحجارة ، والقرميد . ان الدين هو ان ينهض الانسان
من الخضوض ، ويعرف قيمة نفسه . ان الذي عرف « الله » وآمن
به ، لم يسه هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات . ان الحشيش ينبت
على التراب ، ويغني في التراب ، ولكن النفس الانسانية أسمى من أن
يكون مصيرها هذا التراب . إن آدم ولو خلق من ماء وطين ، فقد
يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين ؛ إن جسمه يميل به الى الارض ،
وروحه تطير به في الاجواء الفسيحة . إن الروح لاتنحصر في الجهات ،

وان « الحر » لا يعرف القيود والحدود ؛ فاذا حبس في « القراب »^(١) اضطرب وثار ، لأن الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الاوكار .

ان هذه الحفنة من القراب ، التي نسميها « الوطن » ونطلق عليها اسماء « مصر » و « ايران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسب ، لأن هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ولعت من أفقها ؛ ولكن لا ينبغي ان تنضوي على نفسها ، وتنحصر في حدود أرضها . أما ترى الى الشمس تطلع بسناها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث ان تتعرد من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه . إن فطرتها بريئة من الشرق والغرب ، وان كان مولدها وظهورها في الشرق .

أما الشيوعية ، يا عزيزي ! فإن مصدرها ذلك الإمبراطيلي ، الذي خلط الحق والباطل ، وآمن قلبه وكفر عقله . إن الغربيين فقدوا القيم الروحية ، والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة » . إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ؛ وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إن الاخوة الانسانية لا تقوم على وحدة الاجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس .

إن الملوكية « يمن » ، يطرأ على الجسم ؛ صدرها مظلم خاو ، ليس فيها قلب خفاق . انها كالنحلة تجلس على كل زهرة ، وتتشرب منها الرضاب ، وتفادوها الى زهرة أخرى ؛ وتبقى هذه الزهرات بلونها وشكلها ورائحتها ولكنها أوراق بالية وحشائش ذابية . كذلك الملوكية تستعوز على الشعوب والافراد ، وتمتص منها دماءها ، وتتركها أجساداً هامدة .

(١) يعني به « الوطن » .

إن « الملوكية » و « الشيوعية » تلتقيان على الشره والنهامة ،
والقلق والسآمة ، والجهل بالله والخداع للإنسانية . الحياة عند الشيوعية
« خروج » (١) وعند الملوكية « خراج » ، والانسان البائس بين هذين
الحجرين قارورة الزجاج . ان الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن ،
والملوكية تنزع الروح من أجسام الاحياء ، وتسلب القوت من أيدي
العاملين والفقراء . لقد رأيت كليهما غارقتين في المادة ، جسمها قوي
ناضر ، وقلبها مظلم فاجر .

ألا ! من يبلغ « روسيا » أن القرآن وتعاليمه في واد والمسلمين
في واد . لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت
صلتهم عن النبي محمد ﷺ . ان المسلم اليوم لا يؤسس حياته ، ولا
ينظم مجتمعه على مبادئ القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدين والدنيا .
لقد ثلّ عرش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه
عرشا ملوكيا ، وتربع عليه ؛ واقتبس من المعجم الملوكية وأساليها ،
وبذلك تغير نظره الى الحياة . وتغير منهج تفكيره .

لقد حطمت « القيصرية والكسروية » مثل المسلمين في العصر القديم ،
فاعتبري أيتها الأمة الروسية ! من تاريخنا . عليك بالثبات والاستقامة
في معركة الحياة ، فاذا كنت قد كسرت هذه الاصنام « الملوكية
والوطنية » فلا تعودى إليها ، ولا تطوي حولها مرة ثانية . إن العالم
اليوم يطلب أمة ، تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرحمة والشدّة .
فاقتبسي من الشرق ديانته وروحانيته . لقد أصبحت ديانات الأفرنج
ودساتيرهم عتيقة بالية ، فلا تعودى إليها مرة ثانية . لقد أحسنت إذ

(١) يعني تجرد من العقائد ، والمواطف ، والآداب ، والحضارات .

القيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدأ أي مرحلة الاثبات « إلا الله » ؛ وهكذا تكملين مهمتك ، وتتمين رحلتك العظيمة . إنك تبحثين عن نظام للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساس محكم ؛ وليس هو إلا الدين والعقيدة .

لقد محوت يا روسيا ! أساطير الاولين أسطورة أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورة سورة . وما أدراك ما القرآن ؟ إنه نعي للملوكية والسفرة ، وحنف للاكتناز والاثرة ، وحياة للصعلوك ، وبشرى للملوك . انه يذم الذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويحث على إنفاق كل ما فضل عن حاجة الانسان ؛ ويقول في صراحة « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » . إنه يحرم الربا ، ويحل البيع ، ويحث على القرض الحسن ؛ وهل يتولد من الربا إلا الشرور والفتن ، والقساوة والضاوة ؟ ان اكتساب الرزق من الارض جائز ، فكل ما في الدنيا ملك لله تعالى ، ومتاع للعبد ؛ والانسان أمين في مال الله ، وصي على أرضه وخلقه ، « وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَعْلِفِينَ فِيهِ » . لقد انتكست راية الحق بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدن بظلمهم وعيبتهم . ان المبدأ الذي يقرره القرآن : ان قوت بني آدم من مائدة واحدة ، وان الاسرة الانسانية كلها كنفس واحدة (١) .

انه لما قامت دولة القرآن ، اختفى الرهبان والكهان . أقول لك ماؤمن به وأدين . إنه ليس بكتاب فحسب ، إنه أكثر من ذلك .

(١) ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة .

إذا دخل في القلب تغير الإنسان ، وإذا تغير الإنسان تغير العالم . انه
ظاهر ومستتر ؛ كتاب حي خالد ناطق . انه يحتوي على جسدود
الشعوب ، والامم ، ومصير الانسانية .
لقد ابتكرت تشريعاً جديداً ، ودستوراً جديداً ؛ فحذير بك أن
تنظري الى العالم بنور القرآن نظراً جديداً ^(١) .

★ ★ ★

(١) « جاويدنامه » فلك صطار باختصار واقتباس .

في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم

لقد عاش الدكتور محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف العصر - مدة حياته - في حب النبي ﷺ ، والاشواق الى مدينته ، ونغنى بها في شعره الخالد ، وقد طفح الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع . ولم يقدر له الحج ، وزيارة الرسول ﷺ بحسبه الضعيف ، الذي كان من زمان يعاني الامراض والأسقام ؛ ولكنه رحل الى الحجاز بخياله القوي ، وشعره الحصب العذب ، وقلبه الولوج الحنون ، وحلقت في أجواء الحجاز ، وتحدث الى الرسول الاعظم ﷺ بما شاء قلبه ووجه ، واخلاصه ووفاءه ^(١) . وتحدث اليه عن نفسه ، وعن عصره ، وعن أمته ، وعن مجتمعه . وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني ، والحقائق التي كان الشاعر يغالبا ويمسك بزمامها ، وينتظر فرصة إطلاقها ؛ وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخطب نفسه بقول الشاعر :

حامية جرعى دومة الجندل ، اسجعي

فأنت بـ رأي من سعاد ومسمع

فكان شعره في النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ اشعاره

(١) ليس هذا الحديث من الاستمانة في شيء ، إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب ، استعمله الشعراء قديماً وحديثاً .

وأقوامها ، وكان حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصورا
لعصره ، وتقريرا عن أمته ، وتعبيرا عن عواطفه .

لقد قال محمد اقبال هذه الابيات ، وهو يتخيل أنه مسافر الى
مكة والمدينة - شرفها الله - يهوى به العيس ، ويسير به الركب
على رمال وعساء ؛ يتخيل ، بشدة شوقه وحبه ، أنها أنعم من الحرير
وان كل ذرة من ذراتها قلب يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي
رويدا ويرفق بهذه القلوب الحفاقة . ويجدو الحادي بالما يفهمه ، فتثور
أشجانها ، وتزنع أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعر
رقيق بليغ .

ثم يسعد بالمثل بين يدي الرسول فيصلي ويسلم عليه بما يفتح الله
به عليه . وينتجز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه ، وبلاده ، والفترة التي
يعيش فيها ؛ وعن أمته ، وعن الازمات ، والمشاكل التي تعانها ،
وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثن ، وما فعلت بها هذه الحضارة
الغربية ، والفلسفات المادية ، وما فعلت برسالتها والامانة التي حملتها ،
وأن هي من ماضيها وخصائصها ؛ يرثي لها تارة ويبكي ، ويشكوها مرة
ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنه ، ووحدته في مجتمعه ، وضعفه
رسالته في أمته . وقد سمى هذه المجموعة « بهدية الحجاز » ، كأنها
هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ؛ ولا شك أنها هدية مباركة
للعالم الاسلامي ، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز .

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على السنين ووهنت
قواه ، في سن يفضل فيها الناس الراحة والاقامة ، فما باله يسافر وهو
شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ؟ والسفر الى الحجاز شاق مضن ،
وقد نصحه الاطباء ، والأحبة بالراحة والهدوء ؛ ولكنه يعصم ويعطي
أمر الحب ، ويلبي منادي الشوق ويقول :

« لقد توجهت الى المدينة رغم شبي وكبر سني ، أغني وأنشد
الايات في سرور وحنين ؛ ولا عجب فان الطائر يطير في الصحراء
طول نهاره ، فاذا أدبر النهار ، وأقبل الليل رفر ف بجناحيه ، وقصد
وكره لياوى اليه ، وببيت فيه » .

كأنه يقول لماذا تعجبون اذا قصدت المدينة - وهي وكر طائر
الروح ومأرز المؤمن - في أصل حياتي ، وفي سن أشرفت فيها شمس
الحياة على الغروب ؛ أما رأيتم الطائر اذا جن الليل أمرع الى وكره .
بدأ محمد إقبال سفره ، وهو شيخ مريض ، وسارت به الغافة بين
مكة والمدينة سيراً حثيثاً ، وقد قال لها : « رويدك يا حبيبي ! فان
راكبك لاغب ، ومريض ، وكبير السن ؛ فشت في نشوة وطرب
ولم تبال ، كأن الصحراء حريق تحت أوجلها » .

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يجحدو بالصلاة على النبي ﷺ .
ويريد الشاعر ان يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، بدوم أثرها في
جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه .

ويملكه الشوق ، فيجدو ، وينشد أبياتاً من شعر العراقي (١)
والجامي (٢) فيتساءل الناس : من هذا الاعجمي الذي يغني ويجدو بلغة
لانفهمها ، ولكنها نعمة تشجي القلوب وتغلوها إيماناً وحناناً ، حتى يذهل
الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء ؟ !

ويلد الشاعر بكل ما يعتويه في الطريق ، من سهر وعناء ، وقلة
طعام وشراب . ولا يستطيل الطريق ولا يستبطئ الوصول ، بل يقترح
على سائقه ان يأخذ طريقاً أطول ، حتى يعيش في هذه الاشواق ،

(١) و(٢) شاعران فارسيان ، هما قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا الحنين مدة أوسع ، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق
ونزعة المشتاق .

وهكذا يطوي محمد اقبال هذه المسافة ، في سرور وحنين ، حتى
يصل الى المدينة ، فيقول لزميله : تعال يا صديقي ! نبك سروراً
وتتحدث ساعة ، ونرسل النفس على سجيتهما ، فان لنا شأناً مع هذا
الحبيب ، الذي أسعدنا به الحظ ، بعد طول فراق وشدة اشتياق .

ويقبل على نفسه ، فيتعجب كيف اختص ، من بين أقرانه ، بهذه
السعادة ، ثم يقول : « لاعجب فان المحين المتيمنين أكرم هنا من الحكماء
المتفلسفين . بإسعادة الجد ، وبإحسان الطالع !! لقد سمح لصعلوك بمولوك
أن يدخل على السلاطين والملوك » .

ولا يلبث محمد اقبال - وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة -
أن يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندي ، يذكر آلامهما
وآمالهما ؛ فيذكر كل ذلك في بلاغة الشاعر ، وصدقة الرائد ، وما
أجلها اذا التقنا . يقول :

« ان هذا المسلم البائس ، الذي لا تزال فيه بقية من شتم وإباء ،
وأنفة الملوك وعزة الآباء ، لقد فقد مع الايام ، يا رسول الله !
لوعة القلب واكسير الحب ؛ إن قلبه حزين منكسر ولكنه لا يعرف
سر ذلك » .

« ماذا أحدثك يا رسول الله ! عن آلامه ورزيشته ، حسبك أنه
هو من قمة عالية ، انه هبط من تلك العلياء التي وصلت به اليها ؛
وكل ما ارتفع المكان الذي يسقط منه الانسان كان ألمه شديداً ،
وكانت الصدمة عظيمة ، فلطف الله ! بهذه الامة المنكوبة ، الهاوية من
قمة المجد العالية » .

« انه لا يزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبته قائماً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله . حسبك من هذه الامة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ؛ انها تعيش من غير امام » .

« ان غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ؛ وان الكتاب ، الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الحرب ، على طاق تراكت عليه الاتربة ، ونسج عليه العنكبوت » .

« انه أصبح ، بطول عهده بالمغامرات والبطولات ، لا يفهم لغة المغامرين ، واهابة الشجعان المجاهدين ، وقد ألفت نغمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين » .

« وإن عينه فقدت النور ، وإن قلبه حرم السرور . ان رزيته أنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور » .

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم ، الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتراف ، وحاضره القاسي الكالنج ؛ وكيف صعب عليه أن يتكشف ، ويعتمد على نفسه ، ويكدهج في الحياة . وما أبلغ قوله : « انه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربّيته بالفواكه ، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء » .

ويتذكر محمد اقبال فتنة اللادينية التي توجهت الى العالم الاسلامي ، ويعرف محمد اقبال - وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد - أن سببها النظر المادي البحت ، وخواء الروح ، وبرودة القلب ؛ وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثير من الناس . ويعتقد أنه لا سبيل الى محاربة هذه اللادينية ، والفلسفة الاقتصادية المادية الا الحياة التي تقوم على الحب والزهدي ، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصديق ، المحب الزاهد . فيتمنى للمسلمين هذه

الحياة المثالية التي يسيطر عليها الحب والزهد : وإذا وجدت هذه الحياة
اضطر الناس الى تقديرها واجلالها .

انه لا يعلل انحطاط المسلمين بالفقر ، والضعف في المادة ، بل يعمله
بانطفاء تلك الشعلة التي التهمت في صدورهم ، ويقول : « ان اولئك
الفقراء - المسلمين الاولين - لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم في
صف واحد ، استطاعوا ان يمسكوا بتلابيب المنوك ؛ ولما انطفأت
هذه الجذوة في صدورهم انطوا على نفوسهم ، وأووا الى الزوايا والتكايأ .

انه يستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيه ما يُخجل كل مسلم ؛
يرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ؛
ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله ، وخضوع للجبابة والطغاة ،
ما يتندى له الجبين حياءاً . يذكر « اقبال » ذلك كله ويُطرق رأسه
حياءاً وخجلاً ، ويقول في صراحة واعتراف ، وبلاغة وإيجاز : « ان
جملة القول ، ما كنا جديرين بك يا رسول الله » .

ويلقي نظرة على العالم الاسلامي ، وقد جال في أنحائه ، وعرف
مراكزه ، فيشكو ضعفه وفقره المعنوي ، ويقول في إجمال : « ان
المراكز الروحية (الرباطات والزوايا) أصبحت فقيرة لا تملك غذاء
القلب ولا تحمل رسالة الحب ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها
الواسع) طغى عليها التقليد ، فهي تردد ما تلقنته في الماضي ، في غير
إبداع وابتكار ؛ وهي كثور الطاحون يدور في دائرة واحدة . أما
أندية الشعر والادب ، فقد خرجت منها كثيراً حزيناً ، فليس في
نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح وينير الطموح ؛ انه شعر بارد ، يخرج
من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت » .

ويقول : « قد ضربت في مشارق الارض ومغاربها ، فوجدت المدن

نقص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذي يفرق منه الموت ، فلم أر له عيناً ولا أثراً .

ويذكر السر في ضعف المسلمين ، وتشئت أهوائهم وخودهم ، فيقول : « لقد شق علي ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً ، وشكوت الى ربي ، فقيل : ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب ؟! يعني أنهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ، ويوجهونها اليه . فقلوبهم تائهة ، وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سر . وهي حياة من رزق القلب وحرم الحب ، أو حياة من عرف الحب ، وجعل المحبوب . إنها ، لاسك ، حياة عذاب وشقاء ، وحياة حيوة وضلال .

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير فائض من رحمة الله ؛ بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين ، وقطعهم الرجاء من غرضهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول في عتاب وتألم : « ان أحوالهم وأحاديثهم تنم عن أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وانهم متشاؤون ، ينظرون الى المسلمين ، والى الحياة بمنظار أسود . ويقول : « ان المسلم ، وان كان قد تجرد عن أهبة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره ، لا يزالان ضمير الملوكة وتفكيرهم ؛ وانه إن قدر له ان يعود الى مركزه ، كان جماله جلالاً ، وكانت له سطوة لا نطاق .

وهنا يقبل محمد اقبال الى نفسه ، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه . يقول : « لاني أستحق العطف والعناية ، فاني في صراع عنيف ، وحرب دامية ، مع عصري المادي .

ولا شك أن اقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتعداها وانتقدتها ، وزيفها

في شجاعة وعلى بصيرة وخبرة . وقد كان مربي جيل جديد ، مؤمن بالله ، واثق بنفسه ، معتدّ بشخصيته وشخصية الاسلام ، كافر بالأسس المادية والتفكير المادي ، الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، وحق له أن يقول :

« لقد أدت في الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه اسرار الروح والحب . لقد كان ثائراً على فتن عصره ، وكنتُ ثائراً على فتن عصرى » .

ويذكر ترمده على العلوم الغربية ، وتقلته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وإيمانه وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة : « كنت كطائر يقع على شبكة ، فيقرض الجبال ، ويأخذ الحب ، ويطير بسلام » . وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ، ورمى بقشورها ، وخرج من حبائلها سالماً .

ثم يقول في افتخار واعتزاز : « يعلم الله ! اني رحلتُ في أعمق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير ان أرزأ في عقيدتي ، وخلقى وصلي بك . وقد جلست في نارها بشجاعة ، وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن ابراهيم عليه السلام - مع نار نمرود » .

وهنا يتذكر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم أوروبا ، بين الكتب الجافة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة ؛ فيقول : « لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي ، جاهلاً لشخصيتي . حتى لما وقع بصري عليّ لم أعرف نفسي » .

ويقول : « لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمرة حائته كأساً دهاقاً ، ياله من صداع استرته ! لقد عشت بين علمائه ، وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ؛ ياله من فترة مظلمة

قضيتها من حياتي ! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب . ان دروس
الحكماء قد صدعت رأسي ، وكدورت بالي ؛ ذلك لأنني نشأت في
حضانة الحب والايان ، فلا يناسبني ولا يملأ فراغ نفسي الا العاطفة
والحنان . وهنا يقبل الشاعر الى الطبقة التي تمثل العلم والدين ، فينتقد
فيها الجفاف ، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة
القلب ، فيقول : ان العالم الديني لا يحمل همّاً ، ان عينه بصيرة ،
ولكنها جافة لا تدمع . لقد زهدت في صحبته لانه علم ولا هم ،
وأرض مقدسة ولا زمزم .

لقد شبه محمد اقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلاً
كثيراً ، ولكنه مع الأسف رمال جافة ، وجبال جرداء ليس فيها
زمزم ؛ ومكة بيننا وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالها
فحسب . فما أفقر العالم الديني الذي يحمل علماً جماً ، ولساناً بليغاً ،
وعقلاً مستنيراً ، ولا يحمل دموعاً في عينه ، ولا لوعة في قلبه . انه
أخذ من الارض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداهها .
ثم يحكي عن نفسه . ويقول : « انني لم أبع نفسي وضميري لأحد ،
ولم أستمع بأحد في حل مشاكلي ، ذلك لأنني اكلت على غير الله مرة
واحدة ، فسقطت عن مقامي ، وعوقبت بالهوان مائتي مرة » .

ويندفع يشكو عصره وبجنته في حزن وألم ، فيقول : « اني أحترق
بنار شوقي وحيي ، وأستغرب أني خلقت في عصر لا يعرف الاخلاص ،
ولا يعرف سوى المادة والأغراض ؛ في عصر لم يعرف لوعة القلب ،
ولم يذق لذة الحب . أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ،
وأغني وحدي ، وقد أتحدث الى نفسي وأخفف من أشجائي وآلامي » .
ويقول : « إن اخواني لم يعملوا بما قلت لهم ، انهم لم يجنوا الرطب

من نخل شعري ، اليك أشكو يا سيد الامم ! من أناس لا ينظرون إليّ
الا كشاعر أو متغزل .

لقد أمرتني يا رسول الله ! أن أبلغ اليهم رسالة الحياة والخلود ،
وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكن هؤلاء القساة يقترحون
علي أن أنوح الأموات في الشعر ، وأنظم تأريخ الوفاة ، فأين هذا بما
أمرتني به .

ويشكو ، في توجع وحزن عميق ، زهد أبناء عصره في العلم ، الذي
كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ، ويقول : « عرضت قلبي
عسى أن يستأسره أحد ، فلم أر فيه رغباً ولا له طالباً ، واجت
ثروتي ، وما يحويه صدري فلم أر لها مقدراً ؛ فليعمر حبك قلبي ،
وليشغل حديثك لساني ، فاني لا أجد في العالم من هو أشد وحدة
وأعظم غربة مني » .

ويختم قصيدته بآيات يوجهها الى المرحوم الملك عبد العزيز بن السعود
- باعتباره ملك الحجاز في عهده - وهو خطاب موجه الى جميع ملوك
العرب ، وزعمائهم ، وعظماهم يحذره من الاستعانة بالأجانب ، والدول
الاوربية ، ويدعوه الى الاعتماد على الله ، ثم على ما عنده . يقول :
« اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ، وتكن خيمتك قائمة على
عمدك وأطنايك ؛ ولا تنس ان استعارة الاطناب من الأجانب حرام » .

الفهرس

صفحة

٣	صليتي محمد إقبال
	شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال . حياته وثقافته ، شاعريته
١٥	وانتاجه
٢٢	العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال
٤١	نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه
٤٦	نظرة محمد إقبال إلى العلوم والآداب
٥١	الانسان الكامل في نظر محمد إقبال
	من شعر إقبال :
٦٣	برلمان إبليس
٧١	إلى الامة العربية
٧٦	في جامع قرطبة
٨٤	في أوض فلسطين
٨٩	في غزنين
٩٤	دعاء طارق
٩٨	حديث الربيع
١٠٣	نياحة أبي جهل
١٠٧	رجعية الجاهلية
١١٠	ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني
١١٧	في مدينة الرسول

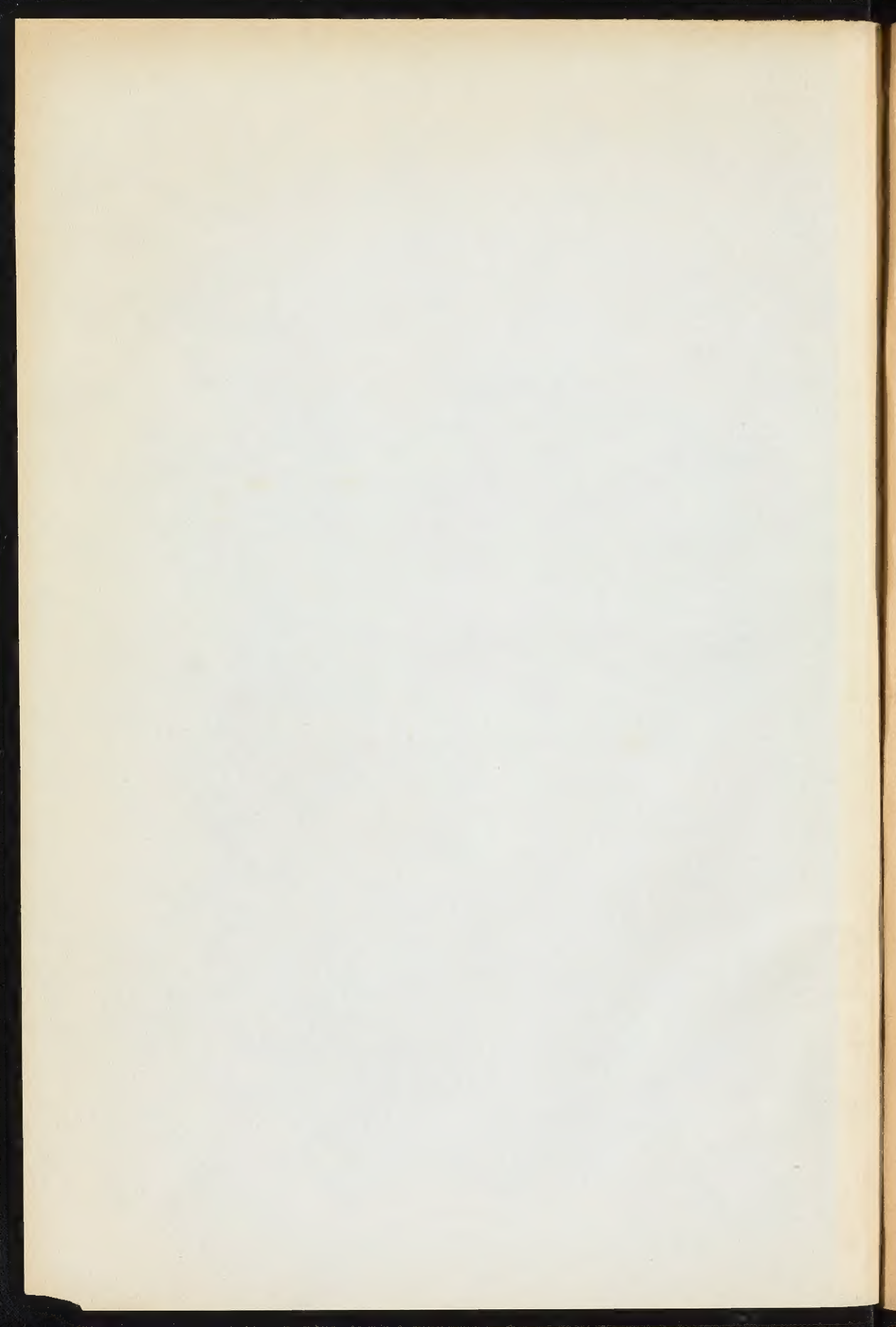
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

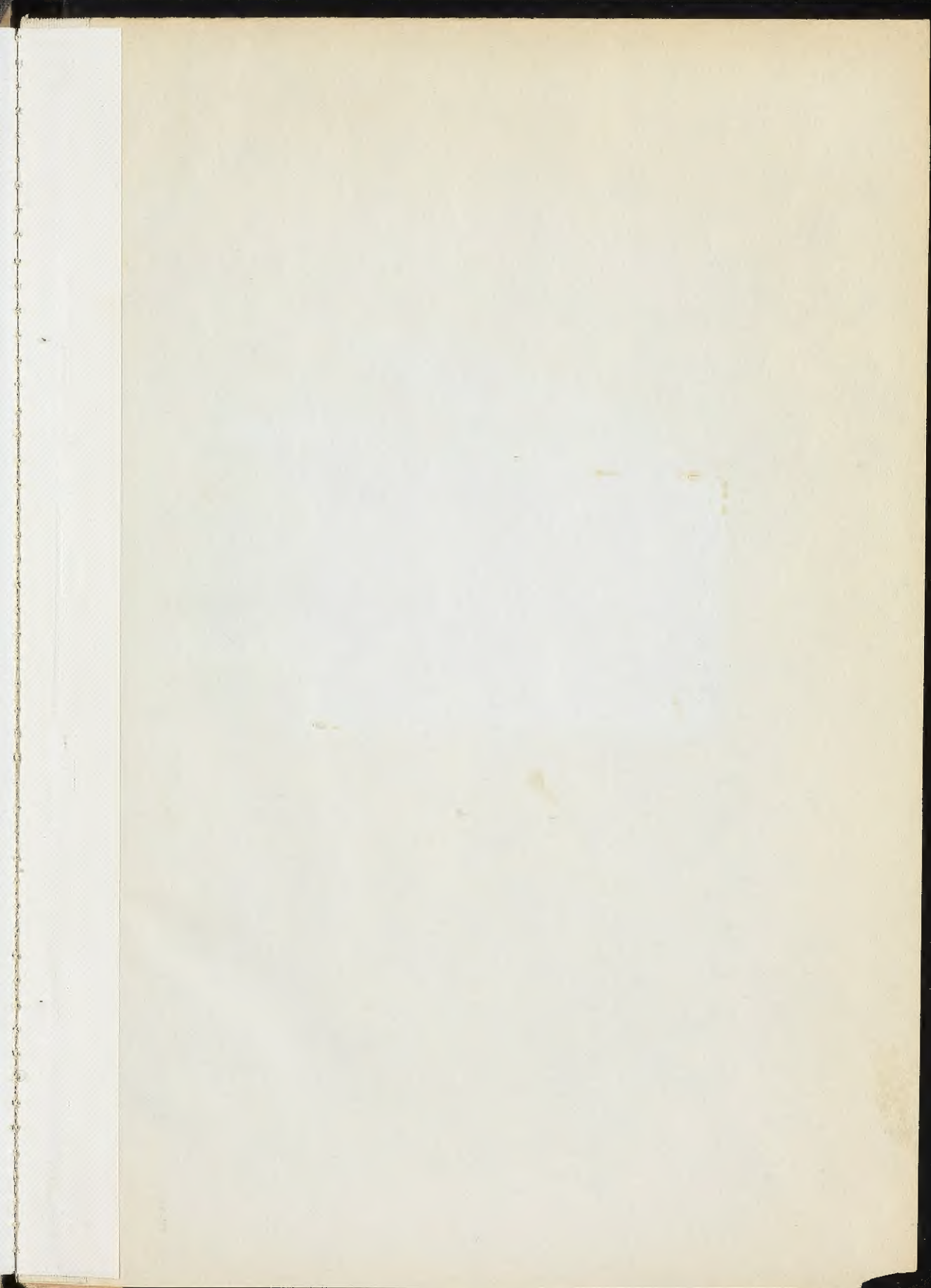
مؤسسة ثقافية تعمل على نشر نفائس الكتب القديمة والحديثة
دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢ - بريقياً : فكر
المكتبة : شارع سعد الله الجابري
المطبعة : شارع خالد بن الوليد

تقدم :

- * سلسلة ذخائر الفكر الاسلامي : للأستاذ أبي الاعلى المودودي
- ٩ - نظام الحياة في الاسلام
- ١٠ - الربا
- * سلسلة حكايات من التاريخ : للأستاذ علي الطنطاوي
- ١ - جابر عثرات الكرام
- ٢ - المجرم ومدير الشرطة
- ٣ - التاجر والقائد
- ويليها حكايات أخرى

- * في سبيل الإصلاح
- * دمشق : صور من جالها وعبر من نضالها
- * من نفحات الحرم
- * روايت اقبال
- * أسواق العرب في الجاهلية والإسلام « طبعة ثانية » » سعيد الأفغاني
- * مصور الدول العربية المتحدة
- * حسن عمار





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



32101 076507951

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع

في القاهرة : مكتبة دار العروبة

في بغداد : مكتبة المثني

٢٠٠ ق.س أو ما يعادلها